وليد فكري

دمُ المماليك

النهايات الدامية لسلاطين المماليك

الرواق للنشر والتوزيع

دم المماليك

وليد فكري

■ الطبعة الأولى.......... يناير 2016

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع: 23865/ 2015

الترقيم الدولي: 7 - 80 - 5153 - 977 - 978

مقالات نشرت بموقع 18+



3 شارع إدريس - أول شارع الوحدة - إمبابة - الجيزة
هاتف وفاكس: 33100951 (202)
محمول: 01147379183
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing



وليد فكري

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روح جمال الغيطاني..

قبل أن تقرأ

إلى من لن يكتفي بقراءة هذا الكتاب، وسيستفزه الفضول لأن يبحث في المراجع التي اعتمدتُ عليها في كتابته.. تحياتي واحترامي لك..

وليد

(I)

إما في القصر أو في القبر

منطقة الصالحية ـ طريق عودة السلطان قطز إلى مصر بعد انتصار عين جالوت وترتيب أوضاع بلاد الشام ـ معسكر الجيش المملوكي..

٢٢ أكتوبر ١٢٦٠م

وقف أتابك العسكر ينظر في صمت إلى الأميرين بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي ورفاقهما، وقد عادوا دون السلطان.. رفاق بيبرس يعلو وجوههم التوتر، وقبضاتهم تلتف في تحفز على مقابض سيوفهم.. أحدهم يرمق بعض قطرات الدم ـ التي نسي في تعجله مسحها ـ تلوث عباءته، فيعبث بطرف العباءة مداريًا أثر الجريمة بين ثنيات الثوب.. خيط عرق بارد يسيل على صدغ قلاوون، وهو يرمق شفتي بيبرس اللتين انفرجتا بعد ثوان مرت كدهر، قائلًا: السلطان.. مات.. قُتل..

حركة متشنجة من حرس السلطان أخرسها الأتابك بإشارة صارمة من يده، ثم قال كأنما لم يسمع ما يصدم: أيكم قتله؟

نظراته الباردة لم ترتفع عن بيبرس، في إشارة واضحة لمعرفته الإجابة قبل طرحه السؤال.. ولم يخيّب هذا الأخير ظنه، فقال بهدوء مماثل: أنا قتلته..

انفرجت الملامح الصخرية للأتابك عن ابتسامة مهذبة، وهو ينحني مشيرًا لكرسي الحكم، المرتفع أعلى مصطبة أمام الخيمة السلطانية، قائلًا ببساطة من لم يتلقَ توًا نبأ اغتيال سلطان المسلمين وبطل معركة عين جالوت: «يا خوند» ـ وهو لقب السلطان ـ «اجلس على مرتبة السلطنة مكانه».

ومن هنا كانت لحظة ميلاد المبدأ الأول للحكم طوال ٢٥٠ سنة من الحكم المملوكي لمصر والشام: «هي لمن غلب»...

* * *

إن كانت هذه اللحظة هي بداية تطبيق المبدأ سالف الذكر بشكل «رسمي»، فإنها لم تكن البداية لتطبيقه الفعلي.. فقبل قطز سقط سلطانان ـ أيبك وشجر الدر ـ ضحيتان للتصارع على السلطة والنفوذ في الدولة المملوكية الناشئة.. وكما لم يكن قطز الأول فإنه لم يكن الأخير، فحتى سقوط حكم المماليك للمشرق العربي عام ١٥١٧م على يد الغزاة العثمانيين؛ شهد عصرهم نهايات درامية لأكثر من ٢٠ سلطانًا، بين إنهاء لحكمه بالاغتيال، أو إعدامه

بعد خلعه، أو شبهة جنائية تحوم حول ظروف وفاته.. وقد حاولت عمل قائمة بأصحاب تلك النهايات، فوجدت الآتي:

٥ حالات اغتيال..

١٢ حالة قتل للسلطان بعد عزله..

حالتي قتل خلال معركة بين السلطان وأعدائه..

٥ حالات شابت وفاتها شبهات اغتيال، غالبًا بالسم، سواء بعد العزل أو في نهاية الحكم..

أي إننا أمام ٢٤ حالة تقريبًا لسلاطين لم تنتهِ عهودهم بطريقة لا تحمل رائحة القتل..

رقم صادم، خاصة بالنسبة لقرنين ونصف من الزمن. ومثير للدهشة لو عرفنا أن هذا العصر، رغم طول وشراسة صراعاته وأزماته الداخلية والخارجية، شهد قوة للدولة، وفترات غير بسيطة ـ بالنسبة لمدى حساسية وتوترات الأوضاع في هذا العصر ـ من الازدهار الملحوظ في مختلف المجالات..

والقارئ للتاريخ المملوكي يلاحظ أن تلك النهايات الدرامية لعهود كثير من سلاطينه كانت بمثابة القاعدة، بينما كانت النهايات الهادئة، كالوفاة الطبيعية، أو الاعتزال السلمي، أو الاكتفاء بنفي أو حبس السلطان المعزول؛ هي الاستثناء.. حتى إن مما يُذكر عن السلطان قنصوة الغوري أنه حين

تعرض لإلحاح الأمراء لتولي السلطنة بكى، وتوسل لهم أن يعفوه منها، ولم يقبل بها إلا بعد أن تعهدوا له أنهم إن أرادوا عزله لن يقتلوه أو يحبسوه، بل يصرفونه صرفًا جميلًا...

فكيف تعايش المماليك وتعايشت الدولة مع هذا النمط من تداول السلطة؟

فليلاحظ القارئ أولًا أن دولة المماليك تختلف عن باقي الدول السابقة والمعاصرة لها، بأنها لم تقم على حكم أسرة، كالأمويين والعباسيين والعثمانيين، بل قامت على حكم فئة من الناس، أي إنها أشبه بانفراد حزب أو مؤسسة بحكم دولة. بالتالي فإن مبدأ وراثة الحكم من السلف لخلفه لم يكن القاعدة الثابتة، وإن حرص المماليك على مراعاته شكليًا فقط فيما يتعلق ببعض أبناء السلاطين، كأبناء بيبرس أو قلاوون، وغالبًا ما كانت هذه المراعاة تأتي خدمة لمصالح وتحالفات وترتيبات بين كبار الأمراء.. أهمها ـ أحيانًا ـ حرص الأمراء الأقوياء على عدم الإخلال بموازين القوى بينهم، فكان الحل الأمثل ـ غالبًا ـ ما يكون وضع أحد أبناء السلطان السابق على كرسي السلطنة بشكل صوري، والحكم وراء ستاره، خاصة لو كان طفلًا غير راشد يسهل التحكّم به من الأوصياء عليه.. أما فيما عدا ذلك فلم يكن هناك احترام لتوارث الحكم، أو ولاية العهد، رغم أي عهود أو مواثيق يأخذها السلطان الراحل قبل موته على أمرائه لاحترام شرعية ولي عهده..

وثانيًا، فإن الجانب الإنساني من علاقات أبناء الطبقة المملوكية الحاكمة

بعضهم ببعض لم يقم على الارتباط الأسري أو القبلي ـ بحكم تنوع وتعدد أصولهم ـ بقدر ما قام على احترام القوة والزعامات، أو الارتباط منذ النشأة، سواء بين المملوك وسيده ـ المسماة بعلاقة الأستاذية ـ أو المملوك وزميله في التربية ـ المعروفة بعلاقة الخشداشية، والزميل فيها اسمه خشداش.

ثالثًا، فإن الغالبية العظمى من المماليك كانت من أصول قوقازية، أو تركية، أو روسية، أو تترية، تحكمها جميعًا ثقافة الحكم القبلي القائم على قدرة الفرد على الوثوب إلى الحكم والسيطرة عليه، بطرق غالبًا ما تكون دموية وحشية.. فكان تبنيهم لمبدأ «الحكم لمن غلب»، والمبدأ الثاني المترتب عليه «الحاكم إما في القصر أو في القبر»، بمثابة التبني لتقاليدهم القديمة، وتصديرها لنظام الحكم في دولتهم.. وحتى القلة ممن كانت أصولهم من غير تلك الشعوب سالفة الذكر، كالسلطان ألماني الأصل حسام الدين لاجين، أو اليوناني الميلاد الظاهر خشقدم؛ لم يستطيعوا أن يخرجوا بالسياسة المملوكية عن تلك الدائرة..

أخيرًا، فإن كل ما سبق قد أدى إلى اتسام الحياة السياسية في هذا العصر بسمة التآمر، والتآمر المضاد، والخيانات، والانقلابات، و«التربيطات» بين أثقال الطبقة المملوكية.. وبالتالي فإن صراع السلطة كان غالبًا ما ينتهي بمقتل أحد الطرفين المتصارعين ـ ومن يوالونه ـ خوفًا من تآمرهم للانتقام من المنتصر، أو محاولة إسقاطه والعودة للحكم..

كل هذا جعل من قلعة الجبل ـ مقر الحكم ومطبخ السياسات ـ مكانًا

أشبه بجحر الثعابين، أو غابة الحيوانات المفترسة، وجعل من عالم المماليك عالمًا خطرًا، لا تتوقف فيه أصوات صليل السيوف إلا لتدور همسات التآمر..

فعن هذا العصر المثير، وعن هذه النهايات الدرامية لكثير من سلاطين المماليك.. نتحدث...



(II)

أيبك وشجر الدُر.. سباق إلى حافة القبر

إبريل ١٢٥٧م ـ القاهرة ـ قلعة الجبل..

عبثًا حاول أيبك مقاومة تلك الذراع العضلية الملتفة حول عنقه، رغم أنها لخصي، أثّر ما فقده في صوته فأكسبه نعومة نسائية، وكسى جسده ترهلًا كما النساء، إلا أن قوة هرقلية حلّت بالذراع فصارت كسلسلة سميكة ثبّتت ضحيتها أرضًا في وضع المصلوب.. ثلاثة خصيان آخرون، جثم أحدهم على صدره، وفشخ الآخران ساقي السلطان المغدور.. نظر باستجداء يائس إلى زوجه شجر الدر، الواقفة ترمق المشهد البشع، وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة الإثارة.. ندت عنها حركة تنم على نية التراجع عن الفعل الرهيب الذي انتوته، فصاح بها خامس الخصيان،

المدعو محسن الجوجري: «لا! ما هذا وقت التراجع! ومتى أبقينا عليه لا يُبقي علينا ولا عليك!»

تأكد الجوجري من إحكام إغلاق باب الحمام، ثم دنى من ضحيته الملكية، وقد علت وجهه اللحيم ابتسامة استمتاع بما يفعل..

«معلوم أن مولانا السلطان بعدما قتل منافسه أقطاي، وقمع المخامرين عليه من المماليك، وأدّب عربان الصعيد، وأسكت الغاغة والزعران؛ ما كان ينتظر لنفسه هكذا ميتة»، قالها وهو يجثو على ركبتيه بين ساقي أيبك مشمرًا ذراعه..

«ستنا السلطانة قالت بلا دم.. حتى يشهد الأمراء بعد ذلك جثة مولانا الذي لاقى أمر الله في الحمام قضاء وقدرًا.. وما على العبد إلا طاعة مولاته.. لماذا لم تطع مولاتك يا.. مولانا.. كنت لتُعمّر أطول من هذا».

«محسن!» صيحة متوترة من شجر الدر قطعت حديثه الاستعراضي: «خلصنا واعمل شغلك!»

«أمر مولاتي»، ثم التفت لأيبك مجددًا: «يمكنك أن تحسدني في لحظاتك الأخيرة، فمنذ قطعوا بلحتي نخلتي ما عدت أذكر ألم البلحتين وهما تُطحنان.. ألم يذكر صاحبه أنه يملك علامة الرجولة في جسده.. فلعل فيه بعض العزاء لك يا فحل الملوك».

ارتعادة أيبك وهو يحس يد الخصي تقبض خصيتيه تحولت إلى تشنجات

رهيبة، وهو يشعر القبضة تسحق ذكورته بلا رحمة.. الألم تصاعد عبر الفخذان والجذع إلى رأسه فأزاغ بصره، بالغًا حدًا جعله يحاول قرع مؤخرة رأسه بالأرض ليعجل بالنهاية ويستريح.. الألم يجتاح العالم من حوله، فيوقف حواسه ويركز كل إحساسه في جسده بين ساقيه.. لم يعد يشعر ببرودة الرخام تحت ظهره العاري، ولا بأطرافه المتشنجة في رقصة أخيرة.. خرجت نقوش السقف المزخرف من نطاق رؤيته.. يحس فقط بالعاصفة تضرب أحشاءه، ثم تنقشع والنور الطفيف في نهاية النفق الضيق يتعاظم ليبتلع الأفق...

* * *

«وبعثت شجر الدر في تلك الليلة إصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبي الكبير، وقالت له: «قم بالأمر»، فلم يجسر، وأشيع أن المعز مات فجأة في الليل، وأقاموا الصائح في القلعة، فلم تُصدّق مماليكه بذلك، وقام الأمير علم الدين سنجر - وهو يومئذ شوكة المماليك البحرية وشديدهم - وبادر هو والمماليك إلى الدور السلطانية، وقبضوا على الخدام والحريم، وعاقبوهم فأقروا بما جرى، فعندئذ قبضوا على شجر الدر ومحسن الجرجاوي».

السلوك لمعرفة دول الملوك - المقريزي

* * *

«فلما مات المعز أيبك، حملوه وأخرجوه من الحمام، وأشاعوا أنه أغمى عليه من الحمام، فأرقدوه على فراش في الحمام..

فلما أصبح الصباح، أشيع بين الناس موته، فركب ابنه الأمير علي، والمماليك المعزية، وطلعوا إلى القلعة، فغسلوا الملك المعز، وكفنوه، وصلوا عليه، ودفنوه بالقرافة الصغرى..

ثم إن الأمير علي قبض على شجر الدر وسلمها إلى أمه...»

بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ابن إياس

* * *

نفس الشهر.. القاهرة.. سكن السيدة أم علي أرملة المعز أيبك، وأم السلطان المنصور علي بن أيبك..

بعد دعاء المنابر لسلطانة المسلمين، المستعصمية، أم خليل، شجر الدر، صاحبة المرحوم الصالح نجم الدين أيوب، عصمة الدنيا والدين.. صار موكبها تحفّه أفحش ألفاظ السباب والدعاء بالويل، وهي تُجر جرًا مهينا من محبسها في البرج الأحمر بالقلعة إلى دار أم علي، أرملة المعز أيبك، وقد جُردت من ثيابها الملكية وعصمة جسدها من لمسة فاحشة هنا ولطمة متشفية هناك.. ساقتها جارية عملاقة فظة من جواري أم علي بحبل من عنقها إلى حضرة سيدتها، وقد أحاطت بها كوكبة من النسوان الشلق، وقد أشهرت كل منهن قبقابًا خشبيًا منذرًا بالويل..

على عرش مرتجل جلست الأرملة المتشحة بالسواد والانتقام، ترمق الجسد العاري لفريستها الأرمنية، التي نقلتها يد القدر من واحدة من جواري الصالح نجم الدين إلى كرسي السلطنة، ثم هوت بها لتقف مهتوكة المظهر والجوهر عاجزة تنتظر مصيرها..

فرقة الإعدام النسائية شكّلت حلقة حول السلطانة المخلوعة، ينتظرن الأمر من سيدتهن.. لم تُطل هذه الانتظار، فأومأت برأسها..

هوت أول ضربة قبقاب على الأنف الجميل فهشمته، حاولت شجر الدر التماسك، ولكن ضربة تالية على مؤخرة عنقها أجبرتها على السقوط راكعة.. جذبتها يد فظة لتقف مجددًا.. وقبل أن تهوي الضربة الثالثة، أشارت أم علي للجواري والنسوان اللاتي جلبتهن، وقالت مصوبة إلى غريمتها نظرة بعينين لا تطرفان: «الرأس والعنق.. ليس الآن.. الضلوع أيضًا تجنبنها حتى أعطيكن الإذن.. أريد لهذه الرقصة أن تستمر لأطول وقت يستطيع هذا الجسد القحب تحمله.. لا تجعلن الموت هدية رخيصة»..

ثم وجّهت الحديث لضحيتها: «اشترطت عليه طلاقي ليتزوجك ويصبح سلطانًا، أمرتيه بهجر ابنه، لم يكفك هذا؛ فقتلتيه لمجرد علمك أنه أعادني لعصمته.. كان لك السلطان واللقب والجاه، ولم أكن أطلب سوى مملكة بيتي، فأين ذهب بك بطر النعمة؟»

أشارت لجواريها، فأكملت الجوقة عزف القباقيب على الجسد البض..

استرخت أم علي في مقعدها وهي تجيل النظر في الجسد المحاصر بالآلام، تريد أن ترشف كأس عذابات خصمتها لآخر قطرة، ينبغي ألا تفوتها نقطة دم أو مزعة لحم، طائر الانتقام يصيح في رأسها أن اسقوني اسقوني! يصك أذنيها صوت عظم يتكسر، تنظر لها جاريتها العملاقة فتومئ لها أن لا بأس، فتشير هذه بدورها للجواري، تتوحش الضربات، تُغمض الأرملة عينيها متيحة لأذنيها المشاركة في متعة الإنصات لأغنية الموت الأليم...

البعض تحدث بعد ذلك عن قيام أم علي بقطع ثديي شجر الدر وتمزيقهما لقطع صغيرة، ثم طبخهما مع الأكلة المعروفة حاليًا بـ«أم علي»، وأن الزبيب قد حلّ بعد ذلك محل الأثداء.. لا يوجد ما يؤكد تلك المعلومة الرهيبة... وعلى أية حال فالأمر كله بشع بما يكفي...

* * *

فلما ماتت سحبوها من رجليها ورموها في الخندق الذي وراء القلعة، وهي عريانة ليس في وسطها غير اللباس فقط، فاستمرت مرمية في الخندق ثلاثة أيام لم تُدفن، وقيل إن بعض الحرافيش نزل تحت الليل إلى الخندق وقطع تكة لباسها، وكانت فيه أكرة لؤلؤة ونافجة مسك، فسبحان من يعز ويذل»

بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ابن إياس

* * *

ثم دُفنت بعد أيام وقد نتنت، وحُملت في قفة بتربتها قريب المشهد النفيسي، وكانت من قوة نفسها لما علمت أنها قد أُحيط بها أتلفت شيئًا كثيرًا من الجواهر واللآلي كسرته في الهاون..

وصُلب محسن الجوجري على باب القلعة، ووُسّط تحت القلعة أربعون طواشيًا، وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة، وقبض على الصاحب بهاء الدين بن حنا لكونه وزير شجر الدر» (التوسيط: إعدام بقطع الجسم نصفين من تحت السرة)

السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزي

* * *

عز الدين أيبك وشجر الدر، الشريكان والغريمان.. المتأمل في سيرة كل منهما يدرك تشابهًا شديدًا، فمن بين من حكموا مصر من الرجال لم تخدم الأقدار إنسانًا فترفعه من موضع غير مرتفع إلى ذروة السلطة، ثم مكرت به فأطاحته عنها بشكل مهين؛ مثلما كان مع أيبك.. وبين من حكمن من النساء لم تكن حياة إحداهن حافلة بالارتفاع بعد صغر الشأن، ثم القذف من عل؛ مثلما كان مع شجر الدر..

فعز الدين أيبك لم يكن أكبر الأمراء المماليك ولا أقواهم ولا أكثرهم أتباعًا، وإنما كان يشغل منصب «الجاشنكير» ـ وهو من يتذوق طعام

وشراب السلطان قبله، لكيلا يكون مسمومًا ـ ثم تدرج في المراتب حتى صار من كبار أمراء السلطان الأيوبي قبل الأخير نجم الدين أيوب، وبعد وفاة هذا الأخير واغتيال ابنه توران شاه ـ بسبب تآمره على مماليك أبيه ـ لم يكن من مؤهل له لتولي السلطنة، باختيار شجر الدر له زوجًا لها؛ إلا كونه غير قوي الشوكة، مما يسهل عزله لو خرج عن الخط المرسوم له..

إلا أن أيبك لم يكن بهذا الضعف الذي حسبوه، فسرعان ما كوّن فرقة المماليك المعزية ـ نسبة للقبه المعز ـ وجعل قطز ساعده الأيمن، وبادر للتخلص من خصومه، فدبّر بالتعاون مع قطز عملية اغتيال سريعة لفارس الدين أقطاي ـ المنافس الأكثر شراسة لأيبك ـ وبادر لتشريد واعتقال وقتل المماليك البحرية المتمردين عليه، والغاضبين لقتل أقطاي، وكان قد أخمد قبلها ثورة عرب الصعيد، الذين أنفوا أن يحكمهم رجل مسّه الرق ـ وقد كان هذا حال كل المصريين، إلا أن العرب وحدهم تحركوا إيجابيًا وأشعلوا ثورة مسلحة ـ فخرجوا عليه بقيادة قبيلة الجعافرة، وعلى رأسهم الشريف حصن الدين بن ثعلب.. ثم التفت لمنافسه الأيوبي حاكم الشام الناصر يوسف، وحاربه بالسيف تارة وبالمراوغة تارة حتى قهره، وتخلص من شريكه الصوري في الحكم الأمير موسى بن نجم الدين أيوب، فخلعه وانفرد بالحكم.. وهكذا لم يعد بينه وبين الانفراد بالسلطان سوى شجر الدر المتسلطة عليه، والتي كانت تُعيّره قائلة: «لولاي ما كنت تصبح سلطانًا»، وتجبره على مفارقة زوجته وابنه علي..

وأما شجر الدر فكانت جارية أرمينية في حريم السلطان الأيوبي الصالح

نجم الدين أيوب، فقربها إليه، وأعتقها ـ بحكم إنجابها ابنه خليل، كما يقر الشرع بشأن الإماء ـ وجعلها شريكته في الحكم، وصارت كنيتها «أم خليل»، رغم وفاة هذا الأخير صغيرًا..

وعندما اشتد المرض بالسلطان ووافاه الأجل، أدارت شجر الدر ـ المعروفة بالعقل والدهاء والثبات ـ العمليات العسكرية ضد جيش الفرنسيين بقيادة لويس التاسع، واستطاعت مملكة مصر تحت حكمها أن تسحق الغزاة.. وأرسلت تستدعي توران شاه ابن زوجها ليتولى السلطة، إلا أنه تنكر لها ولمماليك أبيه، فاغتالوه، واتفقوا على سلطنة شجر الدر.. ولكن الشعب ثار ضد حكم المرأة، وقام الفقهاء بقيادة شيخ الإسلام العز بن عبد السلام بالتحريض على الرفض، وأرسل الخليفة من بغداد يقول «إذا كانت الرجال لديكم قد عدمت فأخبرونا نُسيّر لكم رجلًا»، وأطلت أطماع أمراء بني أيوب في الشام برؤوسها...

فاضطرت شجر الدر لأخذ خطوة مراوغة، فتزوجت من أيبك وتنازلت له رسميًا عن الحكم، وبهذا أسكتت أصوات الثورة على حكم النساء، وإن لم تسكت عن حكم العبيد، وأجبرت أيبك أن يشركها في كل شئون الحكم، وأن يُطلّق زوجته ويهجر ابنه، وبهذا صارت تمسك بمقاليد الحكم، ولم يعد يؤرقها سوى أيبك، الذي بدأ يتنمّر على شروطها متسلحًا بتخلصه من خصومه...

كانت المواجهة بينهما حتمية إذن.. وكان على أحدهما أن يتخلص من الآخر..

وبالفعل كانت الساعات الأخيرة في صراعهما حاسمة، فعندما كان أيبك معتزلًا شجر الدر في بيته في منطقة «مناظر اللوق»، كان يخطط للتخلص من شريكته المتجبرة، بينما كانت تلك الأخيرة ترسل له أحد القضاة رسولًا للصلح، وابتلع أيبك الطعم وصعد إلى القلعة، فقبّلت يده وبات عندها، ثم دخل إلى حمامه الأخير...

كان هذا انتصارًا أخيرًا لشجر الدر، وبالتأكيد فإن أيبك كان ـ قبل اغتياله ـ يحسب أنه قد انتصر واستطاع تطويع منافسته الشرسة.. انتصارًا أخيرًا كان هذا له إذن...

لم يكن يعلم أن قُبلة شجر الدر على يده هي قُبلة الوداع، ولم تكن تعلم أن شهقة غريمها في احتضاره هي نفير إيذان حياتها الحافلة بالانتهاء بشكل دامٍ..

تسابقا إذن إلى حافة القبر، كلاهما انتصر وانهزم... وجاء للقلعة سيد آخر هو المنتصر الحقيقي.. أو كما يقول سعد مكاوي في روايته «السائرون نيامًا» عن انقلابات المماليك «هذا الصباح يكنسنا معا»...

وعلى ذكر هذا السيد الجديد، المنتصر الحقيقي.. فإن مجرى الأمور يشير إلى أن مسألة اغتيال أيبك ثم مقتل شجر الدر، وتوالي الأحداث بهذا الإيقاع السريع، وراءه يد خفية...

فلماذا لا نبحث في شأن هذه النظرية؟

* * *

(III)

هل قطز هو الشريك الخفي في اغتيال أيبك؟

في مسألة اغتيال أيبك بعض من النقاط المثيرة للحيرة والتساؤل..

فالواقعة في صورتها البسيطة المباشرة لا تخرج عن أن امرأة متطلعة للسلطة أصابها الغضب، سواء من تهميشها عن الحكم أو من عودة زوجها لطليقته/ زوجته الأولى، فدبرت قتله انتقامًا، ثم ادعت عبثًا أن موته جاء قضاء وقدرًا..

ولكن، إن قبلنا هذا التفسير بالنسبة لأية امرأة، فإننا لا نستطيع أن نقبله بالنسبة لشجر الدر، مع ما هو معهود منها من تأن شديد وميل للتخطيط المحكم، وتأمين مسبق لجانبها، قبل الإقدام على أية خطوة..

فشجر الدر ليست بالتي تُقدم على هكذا خطوة شديدة الخطورة ـ أعني قتل السلطان والزوج، الذي يضفي على موقعها من الحكم الشرعية والحصانة ـ بتلك الصورة الانتحارية الرعناء، ثم بعد إتمامها تلك الخطوة تبدأ في البحث عمن يحل محله، ويسبغ عليها نفس الحصانة والشرعية، فضلًا عن الحماية من انتقام من يغضبهم قتل أيبك..

فالواقعة ـ في ضوء ما سلف ذكره عن شجر الدر ـ تدفعنا لطرح الأسئلة التالية:

ـ ما مدى تأثير عامل «الغيرة الزوجية» من رد أيبك طليقته أم علي، على قرار شجر الدر، بل وما موقع مشاعر تلك الأخيرة أصلًا من الإعراب فيما يتعلق بقراراتها؟

ـ كيف فات شجر الدر أن تدبر لنفسها الشرعية والحماية في مرحلة ما بعد أيبك؟ أو بصيغة أخرى: ما الذي شجّع شخصية عقلانية شديدة الدهاء كشجر الدر على اتخاذ خطوة التخلص من «ضمانة الحكم» بهذه الثقة؟

ـ كيف يتفق أن قرار شجر الدر الزواج من أيبك بالذات جاء بسبب قلة أتباع هذا الأخير، وسهولة عزله لو حاد عن الطريق المرسوم له، مع سرعة قيام مماليكه بالقبض عليها وتسليمها لأرملة أيبك التي قتلتها؟

ـ كيف اتفق أن تراخى مماليك الصالح نجم الدين أيوب المخلصون عن حماية شجر الدر، رغم شدة تعصبهم لها سابقًا؟

ـ كيف يمكن لرجل مثل أيبك، أدار ببراعة صراعاته مع خصومه، وأظهر لهم قسوته وقوته؛ أن ينتهي قتيلًا لفخ.. كاستدراجه لقضاء ليلة مع امرأة شرسة، قد صار بينه وبينها ما صنع الحداد؟

فلنحاول إجابة كل سؤال على حدة..

* * *

بداية فإن منطلق اختيار شجر الدر أحد رجال زوجها الراحل نجم الدين أيوب لم يكن عاطفيًا، فما اتفق عليه مؤرخو العصر المملوكي أن اجتماع رجال السلطان الراحل قد أسفر عن اختيار أيبك زوجًا لشجر الدر، بناء على أسباب عملية نفعية بحتة، تتمثل في كونه ليس أقواهم ولا أقدرهم على التفرد بالحكم.. وشرطها تطليقه زوجته أم علي وهجرها هي وابنها لم يكن عن عاطفة غيرة، بل كان لضمان ألا يتعرض لأية مؤثرات أخرى بخلاف تأثيرها وتسلطها عليه، وحتى رجوعه سرًا لطليقته وابنه لم يكونا السبب الرئيس للصدام، بل كان ما بلغها من تقدمه لخطبة ابنة أحد الحكام الأيوبيين الأقوياء، مما يترتب عليه ازدياد قوته واكتسابه شرعية شخصية خارجة عن كونه زوج أرملة كبير الأيوبيين.. أي إن الخوف على المصلحة كان هو محرك الافتراق كما كان هو الدافع الأول للاتفاق..

والمثبت عن شجر الدر أنها لم تكن بالتي تغلبها مشاعرها الشخصية عن القيام بما هو واجب عليها لضمان المصلحة ـ عامة أو خاصة ـ بدليل

سرعة وعقلانية تصرفها فور موت زوجها الأول نجم الدين أيوب، وهو حب حياتها، فقد سارعت لاتخاذ التدابير اللازمة لضمان استقرار الحكم وعدم تأثر العمليات العسكرية ضد الفرنجة في الدلتا، وأدارت بحنكة عملية التفاوض مع جيش لويس التاسع المهزوم، وبادرت لاستدعاء توران شاه ابن زوجها الراحل، ثم أطاحت به عندما تنمّر عليها، وأدارت عملية الانتقال السلس للسلطة من توران شاه لها منفردة، ثم لأيبك معها كواجهة صورية، كل هذا خلال أشهر قليلة من وفاة السلطان نجم الدين، مما يشي بثبات انفعالي رائع، وقدرة عالية على تحييد المشاعر عن اتخاذ القرارات الخطيرة..

ثانيًا، فإن شجر الدر هي ممن يمكن وصفهم بأنهم لا تفوتهم شاردة ولا واردة، ويبدو هذا جليًا من تحركاتها سالفة الذكر، والتي تُظهر درايتها العميقة بموازيين القوى في المملكة وقدرتها على استغلالها لصالحها، وكذلك علمها بالتحركات السرية لأيبك؛ من رجوعه لزوجته أم علي أو مراسلته أميرًا أيوبيًا لخطبة ابنته، مما يعني أنها كانت تعرف جيدًا من أين تؤكل الكتف، وكانت متأنية حريصة في كل تحركاتها.. وهو ما لا يتلاءم مع العفوية الظاهرية في جريمة اغتيال أيبك..

ثالثًا، فإن ما هو معروف من ضعف جبهة أيبك مقابل قوة جبهة شجر الدر ليس كافيًا لتفسير الانقلاب الدرامي في موازين القوى، لدرجة سرعة تسليمها لغريمتها وقتلها، وتوريث الحكم ـ ولو ظاهريًا ـ لعلي بن أيبك، فكأنما ـ بل هو ما وقع بالفعل ـ قد فقدت شجر الدر بضربة واحدة كل

ما تملك من قوة وحلفاء وولاء.. صحيح أن أيبك كان قد حرص في فترة حكمه أن يدمّر كل خصومه كاشفًا عن حقيقة أنه ليس ذلك الشخص الضعيف الذي افترضوه، ولكن ليس بما يكفي كي تستمر لجبهته كل تلك القوة بعد موته..

رابعًا، فإن كل تحركات شجر الدر كانت تعتمد في جزء كبير منها على مكانتها المعنوية كأرملة للسلطان العظيم نجم الدين أيوب، بسبب مسألة الرابطة الروحية بين السلطان/ الأستاذ ومماليكه، والتي كانت من القوة والقدسية بحيث أنها تستمر حتى بعد رحيل الأستاذ، وهو ما بدا في حرص المماليك الصالحية على إشراكها في قراراتهم، وتصرفهم على نحو يفيد ضمنيًا اعتبارهم أنها وريثة لإخلاصهم لسيدهم الراحل.. فكيف تهاوت تلك الرابطة القوية بهذه السهولة بعد قتلها أيبك، رغم أن هذا الأخير قد نكّل بزملائه، فقتل أقطاي وشرّد بيبرس وقلاوون، وقتل واعتقل ونفى كبار المماليك الصالحية؟ المفترض أن يستميتوا في الدفاع عن الدعامة الأخيرة لشرعية تسلطهم على الحكم، لا أن يتهاونوا في تسليمها لأعدائها.. ثمة رائحة لـ«صفقة كبير ما» في الأمر تجعلهم يتخذون هذا الموقف المتراخي.. صحيح أنهم قد حاولوا أولًا حمايتها، ولكن ليس كما هو منتظر منهم.. وفي المقابل فإنها ـ كما يبدو واضحًا ـ قد تصرفت بثقة شديدة في استمرار دعمهم لها..

وأخيرًا، فإن أيبك الذي استأسد على خصومه وغلبهم، وأظهر أن وراء الرجل اللين الطيب رجلًا قويًا فاتكًا لا يتورع عن اتخاذ أقسى

التدابير لتدمير منافسيه؛ قد سقط في فخ شديد السذاجة، وخدعته بعض الكلمات المعسولة والقبلات، وربما ليلة حميمية من شجر الدر، التي يعرف جيدًا أنها ليست بالتي تنسى الإساءة.. فكيف سقط أيبك في هذا الشرك بتلك السهولة، إن لم يكن هناك ما ـ أو من ـ شجعه على ذلك؟

كل تلك النقاط تقودنا لاستنتاج واحد: وراء ما حدث أمر دُبّر بليل.. ووراء كل هذا الغموض يد خبيثة لعبت ببراعة.. فمن هو صاحب تلك اليد؟

* * *

لو نظرنا للصورة الكاملة الشاملة؛ واقعتي اغتيال أيبك ومقتل شجر الدر، باعتبارهما موضوعًا واحدًا، وتقمصنا شخصية المحقق الجنائي الباحث في جريمة، لوجب علينا طرح السؤال الآتي: من هو المستفيد من كل ذلك؟

فلنتتبع خيط الأحداث، فتتابعها بعد مقتل كل من أيبك ثم شجر الدر أدى لإجلاس علي بن أيبك على أريكة السلطنة، ثم سرعان ما أطاح به قطز ـ نائب السلطنة في عهده وعهد أبيه ـ ليصبح هو سلطان البلاد، حتى اغتياله على يد بيبرس..

قطز إذن هو المستفيد الأول والأخير.. فهل يكون هو صاحب تلك اليد الخفية؟

الأمانة العلمية تلزمني أن أؤكد للقارئ مسبقًا أن كل حديثي هذا لا يخرج عن النظرية القائمة على بعض الاستنتاجات، التي لا تعدو بدورها أن تكون مجرد اجتهاد بشري قابل للصواب أو الخطأ...

* * *

بعكس ما تُقدّم الأدبيات ـ بالذات ذات الصبغة الدينية ـ قطز، فإنه لم يكن ذلك الطيب الوديع المثالي، بل كان ببساطة شديدة «واحدًا من قومه»، يخوض فيما يخوضون من تآمر وصراعات وصدامات.. وهو ما لا يتعارض مع مكانته كبطل إسلامي، فالعصر العربي الإسلامي كله يزدحم بأولئك الذين جمعوا بين البطولة والتصارع لأجل السلطة..

بداية فإن قطز كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، وكان شريكًا لهم في كل ما كان بعد موته، فكان بالتأكيد ممن شهدوا التخطيط لقتل توران شاه بعد تنكّره لمماليك وزوجة أبيه.. ثم ظهر بشكل صريح في واقعة اغتيال أقطاي، عندما حاول هذا الأخير تحدي أيبك ومنازعته السلطة، فكان على رأس من كمنوا له في القلعة، وقتلوه وألقوا رأسه لمماليكه، رغم ما هو مفترض من وجود علاقة زمالة بينهما.. وقد صار على أثر تلك الواقعة نائبًا للسلطان، ربما على سبيل المكافأة له..

كذلك فإن فترة توليه نيابة السلطان، وشغله موقع ذراعه اليمنى، قد شهدت عملية التنكيل بالقتل والاعتقال والنفي ضد المماليك الصالحية

من رجال نجم الدين أيوب، ولا يمكن أن يكون كل ذلك قد مر عليه مر الكرام دون أن يكون شريكًا فيه، سواء بحكم منصبه، أو لكون أيبك لم يكن ليولي منصبًا كهذا لمن يعارض سياساته..

بقي أن أقول إن قطز ـ كما سيرد ذكره ـ كان مؤمنًا بنبوءة تقول إنه سيتولى حكم مصر ويهزم التتار.. والتاريخ به الكثير من النماذج لمن صدرت عنهم أعتى الممارسات عن يقين أن لهم في الحكم حقًا معلومًا ومسطورًا في لوح القدر...

فلو تتبعنا نظرية أن قطز كان يحرك خيوط صراعات القوة والسلطة من خلف الستار، وسرنا خلف تلك الفرضية، لنظرنا للأحداث من زاوية أخرى افتراضية تتخللها بعض الحقائق الواقعة المسجلة تاريخيًا..

فأولًا، قام قطز بمساعدة أيبك في الإطاحة بأقطاي قتلاً وبأتباعه نفيًا..

ثم ساعد أيبك في التخلص من منافسة كبار الأمراء، بقتل بعضهم واعتقال وتشريد البعض الآخر...

ثم بقي كل من أيبك وشجر الدر، فاستغل الشقاق بينهما ـ لو استبعدنا أن تكون له يد فيه ـ وأغرى شجر الدر بالتخلص من أيبك، وأعطاها الضمانات لانتقال هادئ للسلطة من بعده لسلطان آخر يتزوجها ـ ربما هو عز الدين الحلبي سالف الذكر في الجزء السابق ـ مما يعني استمرارها في الحكم، وعدم النيل من مكانتها.. وشجع أيبك على العودة للقلعة

ومصالحة شجر الدر.. جدير بالذكر هنا أن خلال فترة اعتزال أيبك شجر الدر، وبقائه في داره بمناظر اللوق، قام باعتقال بعضًا من مماليك الصالحية، فتصادف مرورهم تحت شباك تقف فيه شجر الدر خلال اقتيادهم للقلعة، فتبادلوا معها بعض الإشارات الموحية بوجود اتفاق ما بينهم موجه ضد أيبك.. جدير بالذكر كذلك أن الأمير عز الدين الحلبي قد لقي مصرعه بشكل مريب ـ قيل إنه سقط عن حصانه فمات ـ خلال مطاردته بعض المتمردين على قطز، في عهد هذا الأخير..

ثم ـ ما زلنا مع الفرضية ـ غدر قطز بالمرأة المغرر بها، وسلمها لغريمتها أم علي، بعد أن قام بتحييد المماليك الصالحية من جانب، وتشجيع المماليك المعزية على الانتقام لسيدهم من جانب آخر.. وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الثقات قد ذكر أن قطز هو من عمل على تسليم شجر الدر لعلي بن أيبك..

هنا لم يعد بين قطز وكرسي الحكم سوى شرعية علي بن أيبك، فولاه السلطة، ثم استغل اقتراب خطر التتار في استصدار فتوى من كبار رجال الدين ـ وعلى رأسهم العز بن عبد السلام ـ بخلع السلطان الطفل، لأنه لا يصح أن يقوم بأمر المسلمين إلا رجل بالغ عاقل قدير.. فخلعوا علي بن أيبك، وحلف الأمراء لقطز سلطانًا للبلاد...

وهكذا جنى قطز ثمرة سنوات من التخطيط المحكم والعمل المتقن..

* * *

هل تبدو تلك النظرية منطقية؟ بالنسبة لي فإنها تبدو كذلك، ولكنها لا يمكن أن تخرج عن كونها «فرضية»، فالمبدأ العام في الإثبات هو أن البيّنة على من ادّعى، وأنا لا أملك البيّنة على إثبات صحة ادّعائي، بالتالي لا يمكنني إخراجه من خانة الافتراض لخانة الواقع.. وعلى أية حال فإن الحقيقة في التاريخ ـ وغيره ـ هي مسألة نسبية.. وهو مما يعطي البحث في التاريخ متعته وثراءه..

* * *

هذا عن مقتل أيبك وشجر الدر...

فماذا عن اغتيال قطز؟

(IV)

قطز.. ضحية النبوءة الناقصة

برودة عاتية اجتاحت السلطان الملقى في بركة من الدم.. آلام الجسد المثخن بالطعنات، المخترق برؤوس السهام، تنسحب لتحل محلها سكينة عجيبة.. تتوارى موجودات الدنيا رويدًا رويدًا، مفسحة المجال لموجودات الغيب..

آخر نصيبه من المرئيات الأرضية كان وجوهًا أحاطته ترمق بقايا الحياة تغادر وجهه المتعرق.. ميّز ملامح كل من أنص الأصبهاني، بيدغان الركني، بهادر المعزي، بلبان الرشيدي، بينما غطت ضبابة كثيفة باقي مجال البصر، فلم يميز باقي وجوه رفاقه/ قتلته.. اخترق الضباب وجه صارم الملامح، انسدلت خصلة من شعره الأشقر فغطت إحدى عينيه الزرقاوين.. انحنى

الوجه حتى صافحت أنفاسه الحارة الأنفاس المحتضرة.. انكشف عنه غطاؤه فميّز بصره الحديد ارتجافة على زاوية الفم المزموم بعنف، ودمعة شابت زرقة عيني متأمله.. تمتم بآخر قواه الذاوية «بيبرس».. جثا بيبرس على ركبتيه، ومدّ يدًا يتناقض حنانها مع صرامة سيفه الذي هوى على عاتق ضحيته قبل لحيظات..

«قطز»، تمتم بيبرس بدوره مستخدمًا لغتهما التركية التي لم يعد يستخدمها منذ زمن ليس بالقليل.. «انتهى الأمر.. استرح.. نم... انتهى الأمر يا.. صديقي.. هنا تنتهي الرحلة وينقضي الدين القديم وتذهب العداوات».

حاول الرد بغمغمات خانه لسانه عنها، فخرجت مختلطة مبهمة.. تدفق الدم من بين شفتيه، ومن وعيه المحتضر تدفقت الذكريات...

* * *

لا يذكر ماذا كان خطؤه الذي جعل سيده الدمشقي القديم يحتد عليه، فيصفعه ويسبّه ويسبّ آباءه وأجداده، فليست القسوة من صفات سيده.. انزوى في غرفته يبكي عازفًا عن الطعام ومخالطة الآخرين.. آهٍ من ذل من كان عزيز قومه.. أبوه وجده من كان عظماء دولتهما يسعون

لنيل شرف تقبيل أعتابهما قبل أن تغدر بهما الأيام، فيزول ملكهما

ويموتان شريدان ذليلان، وتُطوّح الأيام عزتهما، حتى يأتي يوم يسبّهما فيه رجل عامي..

طرقات رفيقة على باب غرفته، ثم الحاج علي الفراش ـ صديق سيده ـ يدلف إلى الغرفة.. انتزع نفسه من مجلسه، وأسرع يُقبّل يد الرجل الذي يجلّه أهل دمشق.. أجلسه هذا، واتخذ جلسة متوددة بجواره.. تأمل عينيه المحمرتين كالدم، ثم قال: «إيش هذا البكاء؟ من لطشة تفعل كل هذا؟ إيش تعمل إذن لو وقعت فيك ضربة سيف أو نشابة؟!»

تردد برهة وبقايا صوت أمه وهي تهدهده في فراشه بأغنية حانية تعبث بذاكرته.. أخيرًا استجمع أنفاسه وتحدث: «والله يا عم ما أبكي من لطشة.. ولا السيوف تعمل فيّ هذا.. لكني أبكي لعن سيدي أبي وجدي». تردد ثانية وأردف: «وهما خير من أبيه وجده».

الحاج علي لم يعتد مثل تلك الوقاحة من المملوك الشاب.. كظم غيظه وأجاب: «قطز.. أنت كبعض ولدي.. لكن.. يا صغيري.. وإيش يكون أبوك وجدك؟ هما كافر ابن كافر... فالأدب يا صغيري.. لا ينسيك غضبك حسن الأدب».

أحس الحاج بتلك الرعدة التي سرت كتف المملوك المستكينة تحت كفه العجوز.. رفع قطز عينيه وثبتهما في عيني محدثه، قائلًا: «لا تقل كذا يا شيخ! فوالله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم إلى عشرة جدود!»، ازدادت نظراته حدة، وقد برزت عروق عنقه كمن يحمل على صدره أثقالًا: «أنا

محمود بن ممدود.. ابن أخت خوارزم شاه.. ولابد ما أملك مصر وأكسر التتار!»

* * *

«قال الحاج علي: فضحكت من قوله وطايبته.. وتقلبت الأحوال إلى أن ملك مصر وكسر التتار.. ودخل قطز دمشق وطلبني.. فأحضرني وأعطاني خمسمئة دينار، ورتب لي راتب جيد، رحمه الله»

الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ـ أيبك الدوادار

* * *

لم يعد ذلك المملوك المنكسر بقرب العهد بعز أعقبه ذل.. تكورت عضلات ساعديه، وأكسبته تدريبات الفروسية والقتال جسدًا ممشوقًا.. تناقلته الأيدي حتى استقر ـ مؤقتًا ـ عند الأمير الهيجاوي، أحد أمراء دولة بني أيوب بمصر..

جلس في يوم حار مسلمًا رأسه لزميله حسام الدين البركة، يسرح شعره ويفليه مما علق به من قمل، نتيجة أيام من التدريب البالغة مشقته وكثافته حدّ أنهم لم يجدوا وقتًا للنظافة والاستحمام..

قطع خشداشه (زميله في طباق المماليك) الصمت قائلًا بلهجة حالمة: «تعرف يا قطز.. والله ما أشتهي إلا إمرة خمسين فارسًا».

ابتسم مجيبًا بثقة: «طيب خاطرك.. أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك إمرة خمسين فارسًا».

انتقلت يد الزميل من رأسه لقفاه في صفعة ودودة، قائلًا بتهكم: «أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار بقملك هذا؟»

اتسعت الابتسامة: «وإلك علة؟ إيش يلزمك أكثر من إمرة خمسين فارسًا؟»

ثم التفت للخشداش، وأكمل: «لابد لي من هذا.. رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبرني أني أملك مصر وأكسر التتار».

* * *

قال حسام الدين البركة: «فسكتت وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب»

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي..

* * *

تتثاقل أنفاسه.. إعصار من الوجوه يضرب نطاق بصره.. تتبدل بسرعة مذهلة، لكنه لا يغفل منها وجهًا.. أخيرًا تتباطأ حركتها، ثم يزيحها وجه بعينه.. أقطاي...

* * *

ألصق ظهره بجدار الدهليز، وقد تصلبت أصابعه حول مقبض سيفه.. ندت همهمة عن بعض مرافقيه المتخذين مواقعهم، فأسكتها بإشارة من يده.. تراقصت جذوات المشاعل في أول الممر واشية باقتراب الهدف.. كعادة فارس الدين أقطاي، فإنه إذا مشى اشتد في مشيته، فيشارك خطوه السريع بنيته العملاقة في إثارة عاصفة مختصرة حوله.. أشار قطز مجددًا لرفاقه أن استعدوا.. فعلى الأمر أن يتم بسرعة..

كيف كانت لحظة المواجهة؟ لا يتذكر أية تفاصيل.. لا نظرات مواجهة ولا كلمات أخيرة.. فقط يتذكر جيدًا تلك اللحظة التي أمسك فيها رأس أقطاي وطوّحها بكل قوته نحو سبعمئة من فرسان هذا الأخير، احتشدوا حول قلعة الجبل ظنًا منهم أن أيبك اكتفى باعتقاله وأنهم مُخلّصوه..

يذكر صرخة غضب عاتية من بيبرس، صديق وتلميذ أقطاي، نظرته الواعدة بالويل.. عضلات فكه المتراقصة في شبق للانتقام..

يذكر أيضًا قطرة من دم الرأس المقطوع، خالفت اتجاه تطويحته وصفعته

على جانب عنقه.. بقي بعدها أيامًا يحس ألمًا في موضع الصفعة، كأن كفًا غاضبة هوت عليه.. ومن حين لآخر كان يزوره نفس الألم.. في المكان ذاته الذي استقرت فوقه قطرة الدم.. نفس الموضع الذي بعد ذلك اليوم بسنوات هوت عليه أولى ضربات سيوف قتلته..

* * *

«كنا عند سيف الدين قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك التركماني، فأمرنا قطز بالقعود، ثم أمر المنجم بضرب الرمل، ثم قال له اضرب لمن يملك بعد أستاذي المعز أيبك، ومن يكسر التتار، فضرب وبقي زمنا يحسب، فقال: يطلع معي خمس حروف بلا نقط. فقال له قطز: لم لا تقول محمود بن ممدود؟ فقال: يا خوند لا ينفع غير هذا الاسم، فقال: أنا هو، أنا محمود بن ممدود، وأنا أكسر التتار وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه، فتعجبنا من كلامه، وقلنا يا خوند يكون هذا إن شاء الله. فقال: اكتموا ذلك. وأعطى المنجم ثلاثمئة درهم»

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي..

* * *

تحسس كلماته قبل أن ينطقها، وقد أخذ يرمق بطرف عينه وجه شيخ

الإسلام العز بن عبد السلام.. لا يخشى سوى هذا الرجل الصلب الذي يصعب أن تفرض عليه أمرًا لا يُقنعه.. وهو من هو مكانة وشعبية بين الناس...

كان الشيخ يجلس في صدارة المجلس المجتمع في عجالة لمناقشة الخطر المغولي المقترب من حدود الديار المصرية.. ناقشوا أولًا تمويل الجيش، وأدار قطز النقاش باعتباره نائبًا عن السلطان الطفل علي بن أيبك، كما كان من قبل نائبًا لأبيه.. بقيت مناقشة الخطوة الأكثر حساسية.. يجب أن يحسن تصويب هذه الرمية وإلا فسد كل أمر دبّره..

أخيرًا قال العبارة التي تدرب مرارًا، بينه وبين نفسه، على إلقائها: «لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يحسن تدبير المملكة.. فانظروا ماذا ترون..»

ألقاها واستجمع قواه كيلا تفضحه أنفاسه.. يجول ببصره في وجوه الحضور.. هم يدركون ما يرمي إليه، وهو يدرك أنهم يدركون، فقط الشكليات فرضت عليهم جميعًا التظاهر بمناقشة أمر يعلمون أنه محسوم منذ أزاح الموت كل من أقطاي وأيبك وشجر الدر، وغيّب النفي - مؤقتًا - بيبرس وقلاوون.. وأن هذا الجالس أمامهم كان قد شارك السلطان السابق أيبك القضاء على مراكز القوى المملوكية المنافسة، قتلًا ونفيًا واعتقالًا... فلم يعد للبيت المملوكي من كبير سوى ذلك الأمير الشاب قطز، الممتطي طموحه في ظل نبوءة سعده..

* * *

«فلما تمّ أمره في السلطنة، عمل الموكب في القلعة، فلما طلع الأمراء إلى القلعة قبض على جماعة من أعيان خشداشيته المعزية، وقيّدهم وأرسلهم إلى السجن بثغر دمياط والإسكندرية»

بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ابن إياس

* * *

شدّته أوتاد الوهن إلى الأرض بقوة جبارة، اجتاح صدره شعور الغرق وقد اختلطت أنفاسه الأخيرة بالدم المندفع من جوفه إلى فمه.. حاول عبثًا أن يبصق السائل الثقيل.. ارتسمت في مخيلته ابتسامة ساخرة من نفسه.. سلطان مصر والشام.. كاسر جيش المغول.. يعجز عن مجرد بصقة..

انتابته ذكرى النبوءة، نصفها الأول الملوث بالدم، نصفها الذي يخشاه فيما هو مقبل عليه.. ونصفها الآخر المكلل بالمجد.. هو ذلك النصف الذي يرجو لقاء ربه به...

* * *

عاصفة الغبار تحجب المرئيات.. معزوفة مرعبة من تقارع الأنصال الحادة وأصوات مصافحتها القاتلة للرؤوس والضلوع.. أمواج من اللحم

والعضلات والحديد تتصادم كعملاقين عاتيين، ثم ترتد مخلفة حطامًا من البشر والدروع.. في السماء مظاهرة من الجوارح آكلة الجيف، تنتظر وليمة تُعدّ لها على أرض عين جالوت.. تطأ سنابك فرسه صفوفًا من جثث المغول، فيدرك أن أشاوس المسلمين قد أزاحتهم عن مواقعهم.. سخونة حماسية اجتاحته، فألقى خوذته عن رأسه صارخًا: «وا إسلاماه! يا الله انصر عبدك قطز على التتار!»... سهم أصاب عنق فرسه فقفز عن ظهره قبل أن يهوي به، وبقي يقاتل على رجليه حتى أتاه أحد رجاله بفرس آخر.. غاب عما حوله فلم يعد يدرك سوى ذراعه وهي تهوي بالسيف على رؤوس جند المغول.. كالمحموم يندفع ويضرب بقوة عاتية، حتى أفاق على أصوات تكبيرات الجند وهم يطاردون فلول العدو المنسحب.. يهبط عن فرسه ويصافح بوجهه التراب في سجدة شكر طويلة...

* * *

ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.. فإن كان قد حقق الشطر الآخر من النبوءة فإن شطرها الأول ـ مُلكه ـ قد بدأت تُراوده بوادر الاضطراب... فهو لا يستطيع أن ينام منذ بلغته تلك الوشاية أن بيبرس ورفاقه يخامرون عليه ويُعدّون له أمرًا.. بيبرس مجددًا... هل هو غضبه أن السلطان قد رجع عن وعده له بولاية حلب؟ وهل اعتقد بيبرس حقًا أن قطز يعطيه حلب وهي الباب الذي إن ملكته ملكت مداخل الشام ثم مصر؟ هل هو

الثأر القديم لصديقه أقطاي؟ لماذا لا ينسى؟ ألم أنسَ له أنه خلال منفاه كان يُحرّض أمراء بني أيوب في الشام على غزو مصر؟ ألم نتعاهد على نسيان مرارات الماضي؟ لماذا يحملني على أن يكون لي معه شأن لا أحب أن أُضطر إليه؟ كيف التدبير؟

* * *

٢٢ أكتوبر ١٢٦٠م

الصالحية.. على مشارف مصر.. طريق عودة الجيش المملوكي..

«كانت رحلة صيد موفقة.. وفق الله سهم مولانا»

قالها قلاوون لقطز.. إلا أن هذا الأخير لم يسمعه وهو يتأمل بيبرس بطرف عينه.. فمنذ بلغت تلك الوشاية أذني السلطان حرص أن يجعل بيبرس أمام عينيه دومًا، فألزمه مرافقته في كل حين في صورة المُقرّب منه.. إن لم يكن في ذلك تطييبًا لنفسه فليكن من باب تقريب الخصم وعدم تركه يغفل لحظة عن نطاق الحذر.. هل هذا ما دفعه للخروج معه ورفاقه منفردين لصيد الأرانب البرية؟ربما..

قطع بلبان الرشيدي الصمت مقتربًا بفرسه من فرس السلطان: «مولانا يعلم حسن بلاء خادمه بيبرس»، أفاق قطز من شروده ونظر لحظة لبلبان، ثم أجاب: «بلى.. لا ينكر ذلك إلا جاحد».. تبادل محدّثه نظرة سريعة مع

بيبرس، وقال: «فحسن ظننا بمولانا السلطان ألا يغفل عن مكافأة حسن بلائه بما هو أهل له».

عمّ يتحدث هذا الثرثار؟ قالها بينه وبين نفسه وهو يجيب بلبان: «بيبرس لا يقدر أحد يوفيه حقه.. وهو عندنا في أكرم مكان».

ترجل بيبرس عن فرسه مقتربًا من السلطان، أمسك يده وأحنى رأسه طابعًا عليها قبلة، ثم وضعها على عينيه.. استقبل قطز الأمر ببساطة، فهذا أمر اعتادته الآداب المملوكية.. انتظر أن يترك بيبرس يده إلا أن هذا الأخير بقي قابضًا عليها بقوة زائدة.. نظر قطز إليه، رفع بصره للأمراء فوجدهم قد قبضوا سيوفهم، أعاد النظر مباشرة لعيني بيبرس.. ثم ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة.. هل هي ابتسامة إعجاب باللعبة الذكية لخصمه؟ أم هي ابتسامة هازئة بذلك الذي سار وراء نبوءة ناقصة، غفل عن أن يسأل نفسه أين تذهب به وإلام تنتهي؟

الله أعلم...

* * *

القاهرة التي كانت قد تزينت استعدادًا لاستقبال السلطان قطز، استيقظت على المنادي بالترحم عليه والدعاء للسلطان القاهر ركن الدين بيبرس...

ولأن لقب «القاهر» كان شؤمًا على من حملوه سابقًا من الملوك، فقد غيّر بيبرس لقبه ليصبح «الظاهر»..

ولأن قاعدة «مات الملك... عاش الملك» قرينة قاعدة «الحكم لمن غلب»، فسرعان ما انقضت أيام قطز كأن لم تكن، لتستقبل قلعة الجبل سيدًا جديدًا، وحلقة جديدة في السلسلة المملوكية المراد لها الاستمرار حتى يقضي الله أمرًا كان معلومًا..



(٧)

هل قتل الظاهر بيبرس نفسه؟!

طريق حلب ـ دمشق.. منتصف عام ١٢٧٧م

القافلة السلطانية الصامتة تشتد في سيرها نحو دمشق ـ العاصمة الشامية للسلطنة المملوكية ـ حاملة النذير المريع: السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري يحتضر..

تتعدد الأسباب والاحتضار واحد، ولكن من كان يتخيل أن سلطان البرين وسيد البحرين وخادم الحرمين الشريفين، قاهر المغول وكاسر الفرنجة وعزيز مصر والشام وجزيرة العرب وأرض الأناضول؛ يفتك به مرض تافه كالإسهال؟

لم تنل منه جحافل المغول قبل وبعد عين جالوت، ولا كتائب فرسان الفرنجة بكونتاتها ومقدمي إسبتاريتها وداويتها، ولا مؤامرات المخامرين والمنشقين من أمراء المماليك، ونالت منه طفيليات البطن وأدواء الأمعاء..

كان اسمًا على مسمى، فـ«بيبرس» تعني الفهد، وكان مثله سريعًا قويًا مثابرًا صلبًا..

يذكر بعض أمرائه أنهم كانوا في بعض المعارك الضارية يفتقدونه فجأة، ثم يجدونه عائدًا يشق الأفق كمارد أسطوري فوق صهوة جواده، وهو يحمل خوذة أو درعًا كانا لبعض فرسان العدو، بل وربما قطعة من باب الحصن الذي يحاصرونه.. كيف ومتى غافلهم واختفى ليخترق جحافل الأعداء ويعود سالمًا؟ لا أحد يدري..

يحكي آخرون أنه كان في وقت صفائه يتسلى بأن ينزل من قلعة الجبل ليسبح في النيل مرتديًا كامل عدّته ودروعه الحربية، جارًا وراءه طوفًا تقف فوقه بضعة من الفرسان بكامل زيّها..

عوّدهم أن يكونوا مثله فهودًا سريعة خفيفة الكرّ والفرّ، يظهر جيشه أمام حصون الفرنجة بالشام، ينهي الحصار بفتح أو هدنة مشروطة لصالح الجيش المصري، يختفي ليباغت بعض المتآمرين بسوريا، يُسيّر أسطولًا إلى قبرص، يسحق تمردًا بالنوبة، يدمّر خطة للمغول وينهيها بضمه الأناضول، يطوف ببلدان الشام لينظم أحوالها، يزور الأراضي الحجازية المقدّسة، يدير الحكم من قلعة الجبل بالقاهرة، يفاجئ العمال في إنشاءات على ضفاف

النيل خالعًا ثيابه الملكية مشاركًا البنّائين حمل التراب والحجارة فوق أكتاف حديدية لوّحتها الشمس، ينظم حركة البريد بين أطراف المملكة حتى تصل الرسالة من القاهرة لدمشق في أيام ثلاثة لا غير.. يُقسّم مهام الحكم لمؤسسات ومناصب، لكل منها وظيفته وفقًا لقانون صارم، يُنظّم السلطة القضائية فيجعل لكل مذهب قاضيه تيسيرًا على الناس، يعيد إحياء الأزهر كمؤسسة علمية، فالسلطان معروف بعدائه الشديد للجهل، حتى الخواطي والبغايا ينالهن نصيبًا من نشاطه، فيقبض عليهن ويرتب لهن الوعظ الرفيق والاستتابة، ثم يجهزهن ويزوجهن ليكفيهن الاضطرار لتجارة الجسد.. لا أحد يعرف متى وكيف ينام، ما هي تلك الروح الخارقة التي تتلبسه لتجعل منه كتلة من الهمّة والحماسة تتأجج بالنشاط والحركة.. هل حلت فيه بعض أرواح أجداده من مقاتلي قبائل القفجاق التركية؟ هل هي بركة من قرّبهم إليه من أقطاب الصوفية ودراويشها؟ هل أصابته بخير بعض دعوات المجهولين لمن حملوا السيف يدافعون عن دماء وأعراض الناس ضد المغول والفرنجة؟

يقال إن البعض ينال نصيبًا من اسمه، ولكن هذا الرجل بيبرس - الفهد - اسمه هو الذي نال النصيب من صاحبه!

والآن، يرقد هذا الفهد، المارد، السلطان القدير، فوق محفّة تسابق الموت إلى دمشق، كيلا يختطفه قابض الأرواح قبل تنظيم الانتقال الهادئ للسلطة إلى ابنه ووريثه الشرعي محمد بركة خان، والذي أشركه أبوه قبل سنوات في الحكم ليضمن له ولاية عهده..

تقترب دمشق، يتنفس الأمراء الصعداء، يلهبون ظهور مطاياهم لتنهب بهم الكيلومترات الباقية، ولكن على مسيرة يوم واحد من المدينة يدلف زائر إلى خيمة السلطان، زائر لا يأتي الإنسان إلا مرة واحدة ليحمل روحه إلى بارئها، ويترك جسده لغيره من البشر الفانين ليحملوه إلى حفرة وسط التراب...

* * *

في الخيمة السلطانية إلى جوار الجثمان العظيم اجتمعوا، الأمراء سيف الدين قلاوون، وبدر الدين بيليك، وعلم الدين سنجر، وشمس الدين سنقر، وغيرهم.. اتفقوا بغير جدل يُذكر أن يخفوا الخبر حتى عن جند القافلة، وأن يرسلوا لولي العهد بالخبر الأليم ليقطعوا على أي متآمر، طامع، الفرصة في استغلال موت السلطان بالقيام بأية محاولات انقلابية.. انقضى النقاش فتدثروا بالصمت، إلا من همهمة جانبية أو استرجاع خافت أو تنهيدة حزن مرّة..

قطع الأمير قلاوون الصمت مغمغمًا: ما كان للأطباء أن يطيعوه في نزع رأس ذلك السهم الذي أصابه في تلك المعركة الأخيرة..

اعتدل سنقر متسائلًا: «تشك بالأطباء؟ أعني.. هل تراودك أفكارٌ أن بعضهم سمم الجرح عمدًا؟!»

- «لم أفكر في ذلك.. لكن.. أنت تعلم أنه رحمه الله لم يكن يكترث لأوامر الراحة، ونحن كنا في أرض تكثر بها الأسقام، ونزع نصل من الجسد في هذه الأجواء ليس بالقرار الحكيم.. فربما كان هذا ما أدخل إلى جسده الآفة وجعل به التلف السريع».

تدخل بيليك بالتركية القفجاقية، التي كان يدور بها الحوار: «المرحوم لاقى ما هو أشد من ذلك، وقد حباه الله جسدًا قوي التحمل.. والواقع أني أرى غير ذلك من الأسباب»، رمق سنقر مردفًا بحذر: «لكني أخشى أن يسيء بعضكم فهمي».

داعب سنقر شاربه الأشقر الكث، وقد التقط الغمزة بحلم وهدوء، ثم قال: «أنت تتحدث عن الدواء الذي نصحته باستخدامه في وعكته الأخيرة.. لا بأس، قلها بصراحة، هل تشك أنني نصحته به لأعجّل بهلاكه؟»

انتفض بيليك قائلًا بلهجة اعتذارية سريعة: «حاشاي أمير سنقر! ها أنت قد أسأت فهم غرضي! أنا فقط أقصد أن أقول إن المرحوم قد أفرط في استخدام هذا الدواء فوق ما يحتمل أي إنسان، فقوي عليه الإسهال حتى استصفى ما في جسده من سوائل.. أنت نفسك نصحته بحضرة الأمراء ألا يفرط في تناوله، لكنك تعلم كيف كان عناده! هذا ما كنت أعنيه!»

حاول علم الدين سنجر تخفيف حدّة التوتر الذي انتاب الحوار، فتدخل

قائلًا: «يا أمراء، لا داعٍ لتبادل ظنون السوء.. كلنا كنا خاصة ورفاق وخدم السلطان الراحل، والآن بقيت له في عنقنا خدمة أخيرة ـ أعني انتقال السلطنة لابنه أعزه الله ـ فليس من مجال لهذه الأحاديث».

أمّن قلاوون على قوله بتربيتة من كلتا يديه على كتفي كل من سنقر وبيليك.. قام من مقعده وسار نحو الفراش المسجاة فوقه جثة رفيق عمره.. قاوم عاصفة من الألم انتابته، وقمعها عن أن تبدو فوق وجهه الصخري.. بعد فترة من الصمت قال بهدوء حذر: «الواقع أنني أفهمكم جميعًا... أنتم تدورون حول ظن يكبته كل منكم في نفسه خوفًا من سوء العاقبة!»

ـ «أي ظن؟!» تمتم بها سنجر، وقد مسّ قول قلاوون منطقة حساسة في داخله..

التفت لهم قلاوون قائلًا بصلابته المعهودة: «أعني ظنكم أن السلطان في حقيقة الأمر.. قد قتل نفسه!»

* * *

دمشق.. قبل ذلك اليوم بأسبوعين..

أن يأمر السلطان ساقيه أن يقدّم لك كأسًا من شراب القمز ـ لبن الخيل المتخمر ـ المفضل عند المماليك، فهذا شرف عظيم.. فما بالك بأن يقدّم لك السلطان بنفسه الشراب في الكأس السلطانية؟

تناول الأمير القاهر الأيوبي الكأس من يد السلطان، وقد اطمأن أن حركة كهذه لا تعني إلا أن هذا الأخير قد رضي عنه، بعد سخطه السابق من اشتداد الأمير في اللوم عليه لمخاطرته برجاله في مغامرته الحربية الأخيرة ببلاد الأناضول...

تبادل الأمراء النظرات، وقد علت وجوههم علامات الارتياح لصفاء نفسي الرجلين، بعد احتداد واحتداد متبادل وتّرا الأجواء.. فآخر ما قد يرغب فيه أحد هو مشاحنة حادة بين رجلين، تلهج الشام ببطولتهما، خلال تلك الحرب الأخيرة ضد الموالين للمغول في بلاد الأناضول.. فقط تداول الأمراء بعض نظرات الاندهاش من إفراط السلطان في شرب القمز، فرغم اعتداده بقوة تحمله وصلابة بنيته، إلا أنه لم يكن من المفرطين في ملذات الجسد من طعام وشراب..

استرخى قلاوون في مقعده وهو يتأمل رفيقه السابق وسلطانه الحالي بيبرس.. استرجع في ذهنه سريعًا رحلة كفاحهما الطويلة والمريرة، منذ هربهما من مصر بعد اغتيال أقطاي، ثم تنقلهما ورفاقهما بين ملوك بني أيوب بالشام، فعودتهم جميعًا لمصر، وتصالحهم مع قطز توحيدًا للصف ضد المغول، ثم تصفيتهم الحساب الأخير مع قطز، لتنتهي رحلة بيبرس بتربعه على كرسي السلطنة، وتوليته رفاقه المناصب الكبرى في الدولة.. ارتسمت على وجه قلاوون ابتسامة هادئة وهو يتأمل شعيرات بيضاء بدت في لحية بيبرس..

أخرجته من تأملاته رجفة متوترة انتابت الجانب الأيسر من فم السلطان.. لمحه ينظر في كأسه ثم يرمق بطرف عينه ضيفه الأمير القاهر.. يعيد البصر للكأس.. ثمة شيء ما ليس على ما يرام.. السلطان تبدو على وجهه علامات التوعك.. يقوم قلاوون من مقعده متظاهرًا بالهدوء متجهًا لبيبرس.. يضع يده على كتفه ـ وحده من يستطيع التصرف معه بتلك الأريحية ـ يقبض بيبرس ذراع رفيقه، يجذبه هامسًا في أذنه بلغتهما القديمة المشتركة: «سأفض المجلس، ساعدني على الانتقال لغرفتي لكن دون أن يشعر أحد.. وبنفس السرية أرسل لي الطبيب».

* * *

انتهى قلاوون من سرد روايته على رفاقه.. عاد ليجلس بينهم وهم يقلبونها في رؤوسهم.. أخيرًا قال سنقر: «أمير قلاوون.. كلنا نعرف تلك الواقعة.. وكلنا بلغتنا أقاويل أن السلطان قد احتال للتخلص من الأمير القاهر بوضع السم له في كأس شرابه، ثم تبدلت الكئوس بطريق الخطأ.. وشعر السلطان بذلك عندما أحس السم يسري في أحشائه، لكنه كتم الأمر كيلا تنكشف خطته.. لكن ألا ترى معي أن القصة بها ما يجعلها غير مبلوعة؟»

أشار قلاوون بيده: «دعني قبل أي شيء أقول إنني لا أصدق تلك القصة.. ولنفس الأسباب التي أتوقع أن تذكرها..»

تدخل علم الدين سنجر: «السلطان لم يكن ليقدم على قتل شخص بهذه الطريقة المعقدة ـ والساذجة في نفس الوقت ـ لمجرد مشاحنة كلامية».

أمّن قلاوون على قوله: «هذه واحدة».

أضاف سنقر: «كما أن المرحوم قد توفاه الله بعد أسبوعين من الواقعة، فهل يحتاج السم لكل هذا الوقت؟»

ـ «وهذه الثانية»، قال قلاوون، «كما أن ما قيل من أن السلطان قد أصابته الغيرة من حديث أهل دمشق عن بطولة الأمير القاهر، وثنائهم عليه، هو السخف بعينه».

سأل بيليك: «ماذا عما تداولته بعض الهمسات من أن منجمًا أخبر السلطان أنه يرى في النجوم أن عظيمًا يموت في هذه الأيام، فأراد إبعاد الشؤم عنه، فتعمد قتل الأمير القاهر ليوقع سهم النبوءة في نحر غيره؟»

واجهته نظرات الاستسخاف من الأمراء، فقنع بها إجابة لسؤاله...

عادوا لصمتهم الأول.. قطعته صيحات من بعض الحرس، فأزاح بيليك ستار الخيمة، ثم قال: «الأمير بكتوت قد وصل».

قام سنقر وسنجر، وقال الأول: «فلنلاقه ونعطيه الرسالة ليبلغها الأمير.. أعني السلطان بركة خان، ليرتب البيعة والتقليد لنفسه قبل أن يذاع خبر موت أبيه على الملأ».

أشار لهم قلاوون قائلًا: «فلتذهبوا أنتم»، ثم التفت لجثة بيبرس: «فأنا أرغب في قضاء لحظات أخيرة مع رفيقي قبل أن ننقله لمثواه الأخير».

تفهموا رغبته فغادروه وتركوه وحده مع الجثمان.. اقترب بتهيب، رفع الغطاء عن وجه رفيق عمره.. ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة... تمتم وهو يعيد الغطاء موضعه: «إيه يا صديقي المشاكس.. تصر أن تجعل موتك لغزًا مثيرًا كما كانت حياتك»..

* * *

ارتجت القاهرة ـ وبلاد السلطنة كلها ـ للخبر الجلل..

بكى الناس سلطانهم المحبوب، فقد أحبوه حتى نظم شعراؤهم وحكّائيهم سيرته بصيغة شعبية، زخرفوها بالأساطير والتهاويل.. «سيرة الظاهر بيبرس».. جعلوه فيها مصريًا أصيلًا اختطفته يد وضمته للمماليك، نقلوه لمصاف أبطال أساطيرهم الخيالية، وصاغوه قصة بطولة يتوارثها الرواة الدوّارون وشعراء الربابة عبر أجيال وقرون..

ولكن أهل السياسة لم يكونوا على نفس الإخلاص لذكراه، فبعد العهود والمواثيق الغليظة غلبهم مبدأ «الحكم لمن غلب»، فانتزعوا أبناءه من فوق كرسي الحكم، وتربع قلاوون سلطانًا على مصر والشام، ليجعل لأسرته مكانًا خاصًا في كتب التاريخ وقصص الحكام، ولتنضم دماء بعضهم للسيرة المكتوبة بخيط طويل من دم المماليك.. ولكن هذه قصة أخرى...

(VI)

الأشرف خليل بن قلاوون..
رجل قتله تقلب أهوائه

«هل كان بطلا مغوارًا رافعًا لشأن دولته، أم كان وغدًا عربيدًا كما اتهمه من دبروا اغتياله؟ هل كان رجـ... إحم»

ما هذه المقدمة التقليدية؟ حسنًا... فلنجرب غيرها..

«هو ليس مجرد سلطان قتيل وقع ضحية مؤامرة لاغتياله كمن سواه من السلاطين.. بل هو لغز حقيقي.. إنه...»

أعتقد أن هذه المقدمة أكثر إملالًا ونمطية من سابقتها..

حسنًا.. فلأضع الأمر برمته بين يديّ القارئ، وليقرر هو من أين تبدأ القصة.. ومَن مِن بين أبطالها ظالم ومن مظلوم..

لأن فتح الدين ابن عبدالظاهر ـ صاحب ديوان الإنشاء ـ يعرف شكل الموت حين يضع وسمه على وجوه من اقترب أجلهم، لم يكن من مجال لديه للتردد في إزعاج السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفي في مرضه الأخير، وهو طريح فراشه، بإلحاحه أن يُوقّع الورقة المشرعة في يده.. تقليد ولاية العهد لابنه الأشرف خليل.. صحيح أن الأب لم يُخفِ قَط سخطه على سلوك ابنه، من انغماس في اللهو والعربدة، أو بوادر كِبر وطغيان، أو مصاحبته ذلك الأفّاق الشامي «ابن السلعوس»، وصحيح أنه لولا وفاة ولي العهد السابق ما كان السلطان ليفكر في أن يحل خليل هذه المرتبة، إلا أن مصلحة العرش الذي بذل قلاوون كل رخيص وغالٍ ليستمر في نسله، وتلك الحملة المعدة لاسترداد عكا من الفرنجة، والتي عطلها مرض السلطان، يقتضيان اتخاذ ما يلزم ولو لم يُرضَ عنه، وإن كان خليل فاجرًا فإنه قوي، والدولة بحاجة لقوّته في ذلك الوقت الحرج، والشرع الشريف أجاز ولاية القوي الفاجر عند الضرورة، ففجوره على نفسه وقوّته للدولة.. وخليل ما زال شابًا في منتصف العشرينات ولم يفت أوان إصلاحه، ومن يدري لعل المسئوليات وما هو مقدم عليه من حرب ضد الفرنجة ينضجانه.. هذا ما دار ـ غالبًا ـ في ذهن صاحب ديوان الإنشاء..

ولأن المرض لم يُفقِد قلاوون عناده، فقد أشاح بوجهه عن الورقة وحاملها، ولزم صمته علّه يفقد الأمل فيوقف الإلحاح.. فلما بقي الكاتب

على وضعه عاد السلطان للالتفات إليه، واستجمع بقايا قواه المنسحبة من جسده في عبارة واحدة حاسمة، قذفها وعاد ليشيح بوجهه ويغلق عليه أبواب صمت عنيد: يا فتح الدين! أنا لا أولي خليلًا على المسلمين!!

* * *

وإن كان خليل لم يشهد هذا الموقف، فإن فطنته لم تُعجِزه أن يستنتج ما جرى وهو يجلس على كرسي أبيه - بعد وفاة هذا الأخير - والأمراء في حضرته يحلفون له أيمان الولاء.. فعندما طلب التقليد من ابن عبد الظاهر، وقدّمه له الكاتب، وهو يفكر في مبرر سريع لغياب توقيع السلطان الراحل عنه، لم يتكلف خليل سوى نظرة لذيل الوثيقة حتى يلقيها للكاتب باستهتار، قائلًا وهو يجول بنظراته في وجوه كبار رجال الدولة الذين سلموه الحكم طواعية: «يا فتح الدين.. منعني أبي، وأعطاني الله!»

* * *

سجد مُقبّلًا الأرض بين يديّ صديقه وسلطانه، ثم اعتدل وهو يرمق بعين متشفية عبوس وجه حسام الدين طرنطاي، نائب السلطنة الساخط على تلك العلاقة القوية بين السلطان وابن السلعوس، المعيّن توًا وزيرًا..

يعرف ابن السلعوس كذلك مبلغ كراهية خليل لطرنطاي، فهذا الأخير

كان يُفضّل ولي العهد الراحل على ذلك الذي حل محله، ولم يخفِ ضيقه أن صارت ولاية العهد لخليل، بل وربما كانت له يد في انتشار تلك الشائعات أن خليل قد سم أخاه ليزيحه عن طريق طموحاته.. ولطالما تعمّد طرنطاي أن يهين خليلًا وحاشيته، وأن يعاملهم بجفاء وتعالٍ خلال عهد السلطان الراحل، بل وكان سببًا في انقلاب هذا الأخير على ابنه وبطانته، لما يبثه من أخبار تنسب للابن أفعال الانحلال والفجور.. ولأن السلطان قلاوون رجل معروف أنه «لا يحب الحال المائل» فقد انفجر غضبه في وجه ابنه، حتى بلغ حد رفض التوقيع على وثيقة وراثته العرش..

ولأن ابن السلعوس رجل داهية أريب، يجيد قراءة البشر، فلم يستغرب أن تجاوز السلطان الجديد عن مشاعره السوداء تجاه نائب أبيه، واستقر به في نفس المنصب.. ما دام خليل قد فعل ذلك ـ فكّر ابن السلعوس ـ فلابد أنه يدبر فخًا ما لذلك الرجل البغيض..

وقد كان.. فلم تمضِ خمسة أيام ـ خمسة أيام فقط ـ إلا وكان السلطان يأمر بالقبض على الأمير حسام الدين طرنطاي، ومصادرة ممتلكاته وأمواله وأموال أسرته.. وبعد أيام قليلة من اعتقاله خرج طرنطاي من السجن جثة هامدة، مكفنة بأقاويل أن ميتته لم تكن سريعة، وأن حتفه لم يلاقِه إلا بعد معاناة بشعة مع مختلف ألوان التعذيب..

* * *

بعد أيام قام السلطان باستدعاء ابن طرنطاي لمسائلته عن أموال أبيه، ليفاجأ بشاب أعمى مكسور النفس، يقف بين يديه مادًا يده وهو يبكي قائلًا بذلّة «شيء لله»، ويقسم له أيمانًا مغلظة أنه وأهل بيت أبيه لهم أيام لم يدخل أجوافهم قوت بعد أن صودر كل شيء..

العارفون بالأشرف خليل لم يتوقعوا أن يسارع بإصداره أمرًا برفع المصادرة عن بعض عقارات طرنطاي المقتول، ليسترزق أهله من ريعها.. هو نفسه استغرب تلك القشعريرة التي انتابت جسده وهو يرى ذلك الشاب المذلول بعد عزة، يستجديه قوتًا، وتلك الكآبة التي انتابته باقي نهاره وبعض ليله من هذا المشهد، وهو الذي يفخر بصلابة نفسه وجفاء قلبه، باعتبارهما من علامات الحزم الرجولي..

* * *

بلاد الشام ـ محيط مدينة عكا ـ ١٢٩١م

استقرت المجانيق العملاقة في مواقعها المحددة.. شدّ السلطان الأشرف خليل قامته العملاقة فوق صهوة جواده.. متأملًا ببطء مدقق العسكر المصري والشامي الذي ضرب حصارًا محكمًا حول سور المدينة.. مال عليه بعض قوّاده ينبئه أن القائمين بالتنقيب في السور قد أحدثوا به بعض الثغرات، وأن بضع ضربات بالمنجنيق تكفي لتتهاوى تحصينات المدينة.. أربعون يومًا من الحصار تخللتها المناوشات والمفاوضات، جاء ملك القبارصة

لتقديم الدعم لرفاق قضيته، الذين يحتلون المدينة منذ عقود طويلة، ثم رحل ساخطًا عندما أدرك من حالة الشقاق الداخلي بين قادة الإفرنج أن عكا تشهد الأيام الأخيرة لسيطرة فرسان الصليب ـ كما يزعمون ـ عليها..

ما لم يعرفه ملك قبرص هو أن معسكر المماليك كذلك شهد شقاقًا عابرًا، فالسلطان في واحدة من نوبات غضبه وارتيابه المفاجئة أمر بالقبض على بعض قادته وترحيلهم للسجن في القاهرة.. وبصعوبة أقنعه العقلاء من رجاله أن تصرفًا كهذا، في وسط العمليات العسكرية، سيمثّل كارثة محققة للحملة تهدّد بإخفاقها! ولأن السلطان رجل متقلب المزاج، فقد وافق القول اعتدالًا في مزاجه، فتراجع عن تلك الحماقة مضمرًا في نفسه أمرًا، ولكن بعد انتهاء الحرب.. وفي نفس الوقت الذي كان يخطط فيه للتنكيل ببعض الأمراء، كان يُصدر أمرًا برفع ضريبة ثقيلة كان سلفه قد فرضها على تجارة الشام، فأمر هو برفعها لأنها ـ على حد قوله ـ مظلمة، ولأنه يبتغي أن يدعو له الناس بالخير، ثم عاد للتخطيط للتخلص ممن يزعجونه من المعارضين!

استمر الحصار حتى انفتحت الثغرات المطلوبة، فانسال الجيش عبرها لتدور المعارك الدامية في الأزقة والشوارع وحول قلعة المدينة، التي تحصنت بها فرقتا فرسان الهيكل (الداوية)، وفرسان القديس يوحنا (الإسبتارية).. استمرت المقاومة قليلًا، ثم عرضت الفرقتان الاستسلام مقابل حقن الدماء، فأعطاهما السلطان الأمان، فنزل المقاتلون من حيث كانوا يتحصنون.. ولم يمضِ وقت قليل حتى ارتفعت همهمات استياء بين قادة السلطان، فهذا

الأخير لم يلبث أن نكث بوعده وأمر بقتل الجنود المستأمنين.. ولا أحد يدري هل كان قد منحهم الأمان في واحدة من نوبات رضاه، أم كان رجوعه فيه في واحدة من نوبات سخطه، أم إنه لاحظ تطابق يوم وساعة استرداد المدينة مع يوم وساعة دخول الفرنجة لها، فأراد أن يطابق الحاضر الماضي، ففعل بهم كما فعل أسلافهم بمن طلبوا الأمان من جنود المسلمين عند اقتحام الأوروبيين لها، فترك خلفه على مشارف المدينة المستردة تلًا من آلاف الجثث التي تفوح منها رائحة العفن والموت، وتتكالب عليها الجوارح وآكلات الجيف..



القاهرة ـ العام التالي..

تلوى الجسد المعذّب، وقد رسم الوتر المشدود حول عنقه خطًا داميًا بين بياض الجسد وزرقة غزت الوجه.. فقد صاحبه التحكم في أبسط عضلات جسده، فانسال من بين ساقيه خيط سائل نفّاذ الرائحة، وارتفعت رائحة الغاز المتعفن في بطنه.. الخنّاق يعرف شغله جيدًا، فهو يجيد ضغط الوتر على الحلق، بحيث يخنق الضحية ببطء، دون أن يخترق العنق فيذبحها ويريحها.. فعلها في حضرة السلطان منفّذًا أمره في بعض أمرائه، ولم يبقَ إلا ذلك الأخير لاجين.. يهبط خليل عن كرسيه ويميل نحو حسام الدين لاجين، المتلوي ألمًا ورعبًا، وقد جحظت عيناه اللتان احتلت بياضهما شعيرات

حمراء قانية.. ترددت يد الخناق حول الوتر، حاسبًا السلطان يرغب في قول كلمات أخيرة لضحيته، إلا أن خليل أشار له أن أكمل عملك.. لحظة التردد منحت لاجين فرصة ليستجمع قواه ـ أو لعلها حلاوة الروح ـ ليصرخ بصوت مخنوق «يا خوند».. عاد خليل يشير لجلاده بالتوقف هذه المرة.. الفضول لمعرفة ما الذي قد يكون آخر حديث للمملوك الألماني الأصل دفعه للاقتراب منه، مقربًا أذنه من فمه.. انتهب الرجل الفرصة فأكمل بسرعة: «يا خوند.. إيش كان ذنبي؟ ذنبي صهري لـ«طقصوا» بزواجي من ابنته؟!»، التفت السلطان لجثة الأمير طقصوا الملقاة بين أجساد رفاقه، فأردف لاجين: «طقصوا قد هلك.. وأنا أطلق ابنته»..

أعتقد أن عفو السلطان عن لاجين ورده لمنصبه ولقبه لن يثير دهشة القارئ، لما قد لاحظه في هذا الرجل من سرعة تقلب الأحوال، كتقلب الليل والنهار.. جدير بالذكر أن لاجين هذا، ورفاقه الذين لم يكونوا بنفس حظه، كانوا قد تلقوا تكريمًا من السلطان منذ فترة بسيطة، قبل أن يأمر بحبسهم ثم إعدامهم في حضرته.. جدير بالذكر كذلك أن أعظم هؤلاء جرمًا، والوحيد الذي ثبت بالفعل ضلوعه في التآمر على السلطان، هو لاجين نفسه! ومن نافلة القول أنه لم يتوقف عن التآمر، حتى بعد أن أضيفت لعنقه ندبة أثر ذلك الوتر الذي التفّ عليه، لولا عفو من كان يخامر ضده!

* * *

وكارثة الإنسان المتقلب أنه عشوائي الرضا والسخط، فلا هو يضع العفو في مواضعه، ولا هو يضع البطش في موضعه، فيعادي من عليه مقاربته ويقرّب من عليه أن يعاديه!

هكذا دق الأشرف خليل بن قلاوون المسمار الأول في نعشه!

* * *

إلى جانب لاجين؛ كان الخطر يطل برأسه من شخص آخر.. ففي داره كان نائب السلطنة ـ الذي خلف طرنطاي المقتول ـ الأمير بيدرا يستقبل رسالة هامة.. فضها وقرأ محتواها، فعلت ملامحه التي تنم عن أصل مغولي، وسن لم تتجاوز الأربعين؛ علامات الرضا والانتصار..

لم يعتد أن ينتظر حتى يُطبق الخطر فكّيه عليه، فإن كان خليل قد قرّبه وجعله نائبًا له، إلا أنه يُكثر من مساءلته ومحاسبته بفظاظة، ويبالغ في الحط عليه مستخفًا بمكانته بين الأمراء.. وهو يعرف أنه شاب هوائي، فلن ينتظر لنفسه مصير سلفه طرنطاي..

دبر الأمر وأحكم معموليته، خامر مع من يشاركونه من الأمراء السخط على السلطان، والارتياب فيما قد يكون مصيرهم لو أصابتهم بعض سهام تقلبه..

لم تكن تواجههم سوى عقبة واحدة: الرعية.. فرغم ما يشاع عن الأشرف

خليل من انحرافات شخصية، كشرب الخمر، والعربدة، وبعض العلاقات المشبوهة ببعض مماليكه، إلا أن الناس في مصر والشام يحبون سلطانهم لرفقه بهم، ونشاطه في القضاء على الوجود الفرنجي وتحرشات المغول على الحدود.. وبيدرا لم يكن ليعنيه لو كان بطش خليل يطال العوام دون الأمراء، أما وبطشه مرفوع عن العامة وطائل للخاصة، فهذا ما لا يُحتَمَل... لم يكن أمامه حل لإسكات أي غضب محتمل من الرعية أمام المساس بالسلطان؛ سوى تلك الرسالة التي أرسلها، والتي انتظر ردها بفارغ الصبر..

كان نص الرسالة يقول «نسأل فقهاء الشرع الشريف في شأن رجل لا يصلي ويشرب الخمر في نهار رمضان ويفسق بالغلمان، هل يجوز قتله، وهل على قاتله ذنب؟» وكان الرد «يحل دمه، وليس على قاتله ذنب».

إلتفت بيدرا إلى خادمه الثقة حامل الرد، وقال له بصوت غلب عليه الظفر: «سأحمّلك رسالة للأمير لاجين.. وعليك أن تخبره أني أنتظر الرد في الحال!»

* * *

(VII)

الأشرف خليل بن قلاوون..
مهرجان الدم

ديسمبر ١٢٩٣م ـ مصر ـ نواحي البحيرة شمال الدلتا ـ معسكر رحلة صيد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

ترجّل نائب السلطنة الأمير بيدرا عن فرسه، قائلًا لحسام الدين لاجين، الذي كان واقفًا في استقباله: «السلطان لن يرجع معنا للقلعة».

ابتسم لاجين وقد لمح عرقًا نفر من الغضب أعلى صدغ بيدرا، وقال: «أعطانا دستورًا بالرجعة دونه؟» (دستور=إذن)

ـ «أجل! ورسم لي أرجع أنا بالموكب والسنجق (العلم) والتشاريف

والعسكر.. صرف العساكر كلها، أخذ معه الأمير شهاب الدين بن الأشل وذهبا يتصيدان.. وهو يستعجلني.. اذهب يا بيدرا.. ارحل للقاهرة يا بيدرا.. افعل كذا وكذا يا بيدرا.. يحسب نفسه ـ هذا الصبي ـ كفؤًا لي.. يتكبر على أمراء كبار تركت السيوف في أجسادهم علاماتها، بينما هو رضيع يترك علامات بوله على فراشه، أو حتى ربما من قبل أن يركب أبوه على أمه! يرفض أن يُخاطَب أحد بلقب«الزعيمي»، ويقول «من زعيم الجيوش غيري أنا؟».. من فرط كبره أنه لا يوقّع اسمه كاملًا، وإنما يكتب حرف الخاء اختصارًا.. ما يكفيه الحَط عليّ منذ أيام بوشاية وزيره ابن السلعوس.. تصوّر هذا السوقي المأبون يتهمني بابتلاع الإقطاعات وتخزين القمح لأتطاول على السلطان... وإيش يكون هو وسلطانه لأتطاول على أي منهما؟ هذا سلطان عِلق، وهذا مرا عِلق، وإيش يكون ما بين العلوق لنتطاول عليهم!»

ضحك لاجين من تلميح بيدرا، وأجابه: «يا أمير.. هذا العِلق عند العوام هو فاتح عكا، ومسترد حصون المسلمين في الشام من الأرمن والفرنجة.. وأخيرًا تحدى المغُل (المغول)، وقال إنه يسترد بغداد منهم! وتهتّكه في تقريب ابن السلعوس لا يفيدك في طعنه عند الناس.. هو عندهم الملك المجاهد.. وتجريداته وخروجه على رأس العسكر هنا وهناك يشهدان له.. فدعنا من التشنيع عليه، فالناس ليسوا سذجًا.. وإن سكتوا عن قتله باعتباره أمر وكان، لا يسكتون عن الخوض في عرضه».

اغتاظ بيدرا من ضحك لاجين، فقال بعصبية مضاعفة: «الناس الناس.. أف للناس.. ما يبقى إلا نخشى الزعران والغاغة والسوقة والشلاق.. ثم إيش قال بعض القدامى في الناس؟ شيء عن هي لمن غلب؟»

اقترب منهما الأمير بهادر ـ رأس نوبة الخدمة في بلاط السلطان ـ مصححًا لبيدرا بهدوء: «نيلها عجب، وترابها ذهب، ونساؤها لعب، ورجالها عبيد لمن غلب»..

بيدرا: «آه! هذا ما أقصد! وعلى أية حال لو تكلم الناس ولم تكفينا فتوى فقهاء الشرع الشريف، فما لا يحله القول يحله السيف!»

داعب لاجين خصلة شعر شقراء نافرة من سالفه الأيمن، ثم سأل: «قلت لي أنه وحده؟»

بهادر: «معه ابن الأشل».

أشاح لاجين بيده مصححًا: «أعني دون عسكر أو حرس؟»

بهادر: «وحده تمامًا»

ركز لاجين نظره على عيني بيدرا.. تحسس بحركة لا إرادية ندبة تركها الوتر الذي رفعه خليل عن عنقه.. أغمض عينيه وفتحهما بقوة ليخرج من شروده، وقال «هي فرصتنا إذن!»

* * *

عاصفة بشرية تمتطي فرسًا! هكذا كان خليل بن قلاوون.. قامته العملاقة مع شاربيه الكثين ولحيته المشذبة، وملامحه الجامعة بين الوسامة والقسوة،

وانتصابه على صهوة جواد ضخم ينهب الأرض، مطيعًا صيحات سيده المتحمسة، يرسمون لوحة لمارد أسطوري مرعب..

جاهد رفيقه الأمير شهاب الدين بن الأشل ليلحق به.. أبطأ خليل فرسه.. أوقفه والتفت له قائلًا: «أنا جيعان.. معك شيء تطعمني؟»

أخرج ابن الأشل من جرابه الجلدي رغيفًا ممتلئًا، وقال: «ما معي إلا رغيف به فروجة».

ـ «هاته»، قالها وتناول الرغيف، الذي استقر بعد قضمات قليلة في جوف السلطان.. مسح يده، ثم قال لصديقه: «امسك فرسي حتى أنزل لأريق الماء»(يتبول)

ـ «ما فيها حيلة.. أنت راكب فرس وأنا راكب حجرة (أنثى الفرس).. وما يتفقان».. (راكب الفرس الذكر يمكنه الإمساك بالفرس الأنثى وليس العكس)

ـ «حسنًا.. تعالَ خلفي، وأنا أنزل وأركب الحجرة، ثم أنزل عنها، فيتفقان».

تبادلا الأماكن، ثم نزل خليل ليقضي حاجته.. انتهى من استنجائه، ثم التفت إلى رفيقه ممسكًا ذَكَره، وهو يقول: «أترى هذا؟ أتعبني معه.. لا يعطيني إلا إناثًا».

ابتسم شهاب الدين، الذي اعتاد جرأة مزاح سلطانه وصديقه إلى حد

الفُحش البيّن.. لمح غبارًا يقترب.. التفت، فالتفت معه السلطان الذي أكمل إحكام ثيابه، وأمره: «اذهب وانظر هذا». عاد كل منهما لفرسه، وانطلق شهاب الدين نحو الركب المقترب، ليجد كوكبة من الأمراء على رأسهم لاجين وبيدرا وبهادر..

حاول اعتراض طريقهم صائحًا: «إيش جاء بكم يا أمراء؟» فتجاهلوه.. خيّل له أنه سمع بيدرا يهمهم من بين أسنانه: «لي شغل بالسلطان!» قبل أن يتجاوزوه..

ومن موقعه، وقبل أن يفيق من ذهوله، رأى شهاب الدين كل شيء يحدث بسرعة تفوق قدرته على الاستيعاب!

* * *

عندما اقتربوا منه لم يميز منهم غير بيدرا، حيث كان اللثام يخفي باقي الوجوه، بينما ينم الزي أنهم من أمرائه.. حسبهم يتوقفون ويترجّلون عن خيولهم ليبوسوا الأرض بين حافري فرسه.. شدّ قامته فوق فرسه، كما يليق بالسلطان، وجهّز نفسه لتقريع بيدرا لتلكّؤه عن الرجوع للقاهرة.. اقترابهم تجاوز حد التحية.. لمح قبضاتهم تلتف على سيوفهم.. حياه الغدر من نظراتهم، فتمتم: «غير معقول!»..

الضربة الأولى كانت من سيف بيدرا مصوبة إلى رأسه، رفع يده تلقائيًا ليتقيها، بينما يبحث بالأخرى عن سلاحه، أحس ألمًا مريعًا يمزق كفّه،

وأدرك متأخرًا أن ما صفع وجهه كان بعض أصابعه.. سمع صوتًا مألوفًا: «يا نحس! من يريد السلطنة يضرب هكذا ضربة؟!»

لاجين! هذا لاجين!

واجهه لاجين، وهو يكمل حواره لبيدرا رافعًا سيفه: «من يريد السلطنة يضرب هكذا».

في اللحظة التالية كان خليل يرمق نجوم السماء تركض بجنون، وهو يشعر بالحجارة تُمزّق ظهره، وجسده يُسحَل من ذراعه التي بقيت قبضتها متخشبة حول اللجام المتدلي من الفرس المندفع، محاولًا الهرب من هذا الجنون الدموي، بينما لم يعد يربط الذراع نفسها بجسمه إلا حبال واهية من لحم وعضلات الكتف المحلولة عن الجذع، والسائل اللزج نبيذي اللون يتفجّر من الفجوة المرعبة بجسده، ليرسم على الأرض خطًا طويلًا بعثرته سنابك خيل الأمراء، وهم يلحقون بالفرس المرعوب ويوقفونه.. عاصفة من نار اجتاحت أعلى صدره حين اجتثته يد الأمير بهادر من رقدته، فاصلة جسده عن ذراعه شبه المقطوع.. بُطِح قسرًا على وجه.. لمح من زاوية رؤيته الصعبة بهادر يقبض سيفه بقوة.. وكان آخر ما أحس به هو ذلك النصل البارد الطويل الذي شق ما بين إليتيه، وهو يتحول إلى عامود ملتهب يخترق دُبره وأمعاءه، ممزقًا كل ما في طريقه وصولًا لحلقه!

لحسن حظه أنهم تأكدوا من موته، قبل أن يتركوه في العراء ويذهبوا للخيمة السلطانية في المعسكر، ليحلفوا أيمان الولاء لبيدرا سلطانًا للبلاد..

بلى.. فلو كانوا قد تركوه وفيه بعض الروح لأحس بضباع وذئاب الصحراء التي التهمت وجهه وأطرافه، حسب وصف والي البحيرة الأمير أيدمر، عندما عثر على بقايا الجثة بعد يومين، ليحملها ويغسّلها ويقوم تجاه سلطانه بالواجب الأخير..

* * *

القاهرة ـ بعدها بأيام

المحروسة تنتفض بحمى الجنون.. الناس في ذهول من مقتل سلطانهم المجاهد المحبوب.. الأمراء يتطاحنون.. زين الدين كتبغا جمع ألفًا وخمسمئة من الفرسان وهاجم بيدرا ورجاله، الذين تسحبوا من حوله وتركوه للأسر.. لاجين اختفى تمامًا، رغم همسات تقول إن كتبغا يعرف مكانه ويراسله ليقنعه بالظهور، مع منحه الأمان مقابل تحالفات ما على مصالح ما.. الأمير الشجاعي، الذي كان خليل قد كلّفه بنيابته في غيبته مع رجاله، حشد قواته على بر القاهرة، ومنع المراكبية من إجازة أي إنسان عبر النيل وصولًا للعاصمة.. بيدرا يتهم كتبغا أنه كان شريكًا له في المخامرة على السلطان.. يقول إنه أول من عرف ووافق.. كتبغا ينفي بهدوء.. الشجاعي يُصَعِّد من غضبه.. أخيرًا يتفق مع كتبغا على تنصيب الأمير محمد ـ أخو السلطان القتيل ـ على أن يتولى كتبغا الوصاية عليه، فهو بعد ابن تسع سنوات.. الشجاعي يهدأ.. يسحب قواته لثكناتها.. يحلفون جميعًا للسلطان الطفل.. يُحضرون

بهادر وبيدرا.. بهادر يُذبَح لتوه.. أما بيدرا فجزاءً وفاقًا.. تُقطَع كفه ثم ذراعه من الكتف ـ كما جرى للسلطان ـ يفقد أحد مماليك السلطان المغدور سيطرته على أعصابه، فينقض على نائب السلطنة الخائن ويشق بطنه بسيفه، ولا يعنيه أنه قد لحظ به بعض حياة وهو ينتزع كبده ليجتث منها قطعة بأسنانه، يسيل الدم على فمه وعنقه ملوثًا زيه، وهو ينظر للسماء بنشوة انتقامية رهيبة.. يسارع باقي المماليك لنيل نصيبهم من الكبد الساخنة، بينما يقيم بعضهم حفلة عبث بسيوفهم في بطن الخائن الفاغرة فاها.. يستمر الحفل الدامي حتى يصيب التعب مماليك خليل، فيتهاوى بعضهم جالسًا حول الجثة الممزقة، بينما ينخرط البعض الآخر في بكاء هيستيري نذر كبته حتى ينال الثأر.. هكذا تهدأ القلعة..

لكن لتهدأ المحروسة المرتجفة بمَس الدم كان لابد لها من حضرة وزار.. وسرعان ما أقيما.. فنودي في الناس أن احتشدوا لتروا عقاب من يقتل أستاذه.. وشق القاهرة موكب الجمال التي حمل كل منها خشبة سُمَّر عليها أحياء مجموعة من رجال بيدرا وحلفائه من الأمراء، ممن اعترف بعضهم على بعض، وقد قُطِعَت يدا كل منهم بالساطور وعُلِقَتْ في عنقه.. والمشاعلية (الجلادين) تنادي بين الناس بجريمتهم.. الرَكب يمر تحت بيت أحد المعلّقين، امرأته تقف على السطح، تصرخ مقطّعة شعرها وهي تلقيه عليه.. تحاول أن تقذف نفسها فوقه لكن بعض جواريها يمسكنها.. بين حين وآخر يشق أحد المسمرين اختلاط أنين رفاقه وهمهمات الجمهور بصرخة ألم عاتية.. في مقدمة الموكب حمل رمحان رأسا بهادر وبيدرا.. استقر

الرأس الأول منصوبًا على باب بيت صاحبه بأمر أولي الأمر، والآخر دُفِن مع بقايا جسده..

وفي نهاية اليوم عُلقت جثث من أماتهم العذاب على أبواب المدينة.. أما من عاشوا فقد خُلعت عنهم المسامير وسُلّموا لأهلهم، ثم يعاد أخذهم في الصباح لدقّهم بالمسامير في خشبة موكب العذاب ليطاف بهم، وهكذا حتى يسلموا الروح..

* * *

لا يُعتبَر بيدرا سلطانًا طالما لم يستولِ على القلعة، كما يقول عرف المماليك.. بعد حفلة الإعدام بشهور يظهر حسام الدين لاجين، الذي اتضح أنه كان مختبئًا في المسجد المهجور ـ آنذاك ـ لأحمد بن طولون، تجري بينه وبين كتبغا مفاوضات سرية، فهذا الأخير يحتاج لبراعة لاجين الألعبان في المخامرة ونصب المعموليات.. سرعان ما ينصبان ملعوبًا ويطيحان بالأمير الشجاعي ليُعدَم.. ثم يخلع كتبغا السلطان الطفل ويحبسه في جناحه بالقلعة، ويتسلطن هو عوضًا عنه..

ولأنه كأس دائر، فسرعان ما يتآمر لاجين على كتبغا وينقلب عليه، ويستولي على الحكم.. ولكنه لم يعرف أنه عندما اتخذ مكانه على العرش، كان يحجز لنفسه مكانًا بين المسفوكة دماؤهم من سلاطين المماليك...



(VIII)

حسام الدين لاجين.. الأمير الوغد والسلطان الصالح

ـ القاهرة ـ ١٢٩٦م

هو اللغز الحقيقي، تقرأ سيرته أميرًا فتبغضه، وتطالع سيرته سلطانًا فتحبه.. رجل عاش حياة الوغد المتآمر المتلاعب، وانتهى نهاية البطل المصلح المتآمَر عليه..

هو حسام الدين لاجين، السلطان جرماني الأصل، وكم تتابعت على عرش مصر من أجناس تمصّرت، وصار تاريخ مصر هو تاريخها، وتاريخها هو تاريخ مصر..

بدأ مملوكًا صغيرًا من مماليك السلطان علي بن أيبك، ثم ورثه المنصور قلاوون فيما ورث، وتدرج حتى صار نائب السلطان على بلاد الشام.. عرفه الأمراء رجلًا سكيرًا عربيدًا ماجنًا، لكنه أجاد فصل انحرافاته الشخصية عن عمله الرسمي، فعرفته الرعية واليًا عادلًا، فأحبه الناس.. كان مزيجًا غريبًا متناقضًا، عفيفًا عن دماء العامة وأموالها، وبالعكس كان خائضًا في دماء الأمراء والملوك، مسارعًا للتآمر عليهم، مبدلًا ولاءه كسرعة تبدل الليل والنهار.. يحلف للسلطان سيف الدين قلاوون أيمان الولاء، ثم يتآمر من بعده على ابنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، حتى يصل به تآمره لأن يوضع وتر الإعدام في حلقه تمهيدًا لخنقه في حضرة السلطان.. ينتزعه القدر من براثن الموت ويعيده لمكانته، لكنه لا يحفظ الجميل لسلطانه، فيكون ممن يهوون عليه بسيوفهم مذيقًا إياه الردى.. يفر مؤقتًا ثم يعود لحضرة السلطان محمد بن قلاوون ـ أخو السلطان القتيل ـ ويجدد الولاء لآل قلاوون، ثم يحالف كتبغا ـ نائب السلطنة ـ ويخلع سيده الجديد، ويمنح ولاءه لحليفه، ويسجد بين يديه مقبلًا الأرض مقدمًا علامات السمع والطاعة..

ثم ها هو يستغل سفر كتبغا لتفقُد بلاد الشام، فيتآمر عليه ويخلعه، لكنه لا يمنح الولاء لسيد جديد، فقد صار هو السيد، السلطان المنصور حسام الدين لاجين.. سلطان مصر والشام... فقط هذه المرة لا تصبح أيمان الولاء الغليظة ذاهبة لاتجاه واحد، بل يتبادل مع الأمراء قسمًا من جانبهم ألا يخرجوا عليه، ومن جانبه ألا يخالف رأيهم ولا يميز نفسه

عنهم، وألا يُؤمّر عليهم أيًا من مماليكه.. ولكن، كم تساوي في ميزان الواقع أيمان ولاء أمراء المماليك وسلاطينهم؟

فالسلطان الجديد سرعان ما يؤدي رقصة جديدة من رقصاته على أحبال السياسة، فيستغل تصديق الأمراء حلفانه المغلظ، ويطيح بالمعارضين له منهم نفيًا واعتقالًا، ويرفع مملوكه عشريني العمر المحبب إلى قلبه «منكوتمُر» نائبًا للسلطان، بل وتتحدث الألسنة في أروقة قلعة الجبل بنية لاجين تنصيب مملوكه وربيبه وليًا للعهد.. وبمساعدة نائبه الشاب يعيد تقسيم إقطاعات الدولة، فيستأثران بأكثرها، ليحكما قبضتهما على الأمراء والجند من مصدر أموالهم ومنبع ثرواتهم.. يجدد البعض معارضتهم، فيعصف بهم السلطان، فيطأطئ بعضهم برأسه متفاديًا العاصفة الهوجاء..

هنا فقط، يوقن السلطان لاجين ونائبه منكوتمر أن الأمر قد استتب لهما، لكنهما يغفلان عن ابتسامة ساخرة ماكرة من القدر...

* * *

هل هو إحساس الذنب أم هي رغبة التطهر؟ لعلها نية كنية إخوة يوسف الصدّيق حين قالوا إنهم بعد تخلصهم منه سيصبحون قومًا صالحين.. أم هو التعقّل المتكسب بحكمة العمر، قد أصاب رجلًا بلغ الخمسين من عمره وأدرك أنه لن يعيش قدر ما عاشه، وأن العمر أقصر من أن يستمر في إنفاقه في عبث شخصي وسياسي..

فبعد أن أحس لاجين بقوائم عرشه تستقر فوق الأرض، التي طالما زلزلتها هزات الفتن والمؤامرات، سارع لاتخاذ الاجراءات الإصلاحية لأجهزة الدولة ومؤسساتها، فأعاد لقضاة الشرع الشريف هيبتهم، وحصّن أحكامهم من عبث أصحاب المصالح والمنتفعين، حتى لو كان من بينهم ربيبه وصديقه منكوتمر نفسه..

ومن ناحية أخرى سارع لإبطال الكثير من مظاهر البذخ الرسمي، واقتصد في ملبسه وركوبه ومواكبه وما يصاحبها من مراسم وتشريفات..

وليكتمل استغراب خاصته، فقد راسل قيصر بيزنطة ـ وكان ابنا الظاهر بيبرس، سلامش وخضر، منفيان عنده ـ يطلب منه إرسالهما لاستقبالهما وآلهما بكل احترام وتعظيم.. كأنما يكفّر بهذا عن طول بطشه بأهل الحكم وتآمره عليهم..

وحتى الحجر عمّه خيره، فلم ينسَ لمسجد أحمد بن طولون ـ وكان قد بقي مهجورًا منذ ١٧٠ عامًا ـ أنه كان الملجأ والمخبأ الذي احتمى به بعد اغتياله الأشرف خليل بن قلاوون، بينما مماليك هذا الأخير يبحثون عنه للاقتصاص منه لأستاذهم، فأعاد عمارته وتجميله وإعماره بالمصلين...

أما عن شخصه، فكأنما تبدل ليصبح إنسانًا آخر، فقد أقلع فجأة عن معاقرة الخمر، وتقشف في ملبسه ونفقاته الخاصة، وسارع بإخراج الصدقات من حر ماله، فكأنما لم يعد هو لاجين الذي تتحاكى الطبقة الحاكمة بلهوه وانحرافاته.. وبعد أن كانت الأحاديث تدور عن مجالس لهوه وشرابه مع أعيان دمشق خلال سنوات ولايته على الشام، صارت تدور عن تقريبه الفقهاء والعلماء وأهل الصلاح والتقوى..

رضي عنه الناس، وصادف توليه الحكم انخفاضًا شديدًا في الأسعار، وتوفرًا للسلع، وإدرارًا للمطر، فتفاءلت به الرعية، وأحبته، ولهجت بالدعاء له.. وبقي يرفع المظالم عن العامة، ويلغي المكوس والضرائب واحدة تلو الأخرى، وهو يكرر «لو عشت لما أبقيت مكسًا».. فازداد الناس دعاءً له ورجاءً لطول حكمه..

لكن الأمراء كان لهم رأي آخر..

* * *

القاهرة ـ يناير ١٢٩٩م

«لم يكن هذا اتفاقنا معه!»

قالها الأمير سيف الدين طغجي ـ مقدم المماليك البرجية ـ وهو يُثبّت مشعلًا في أحد أروقة القلعة.. التفت لرفيقه الأمير كرجي ـ مقدم المماليك السلطانية ـ مردفًا: «أيمانه لنا ذهبت أدراج الرياح، لم يلتزمها إلا بقدر ما تتاح له الفرصة لتقليم أظافرنا، الآن لم يعد من بين من يعارضونه إلا أنا وأنت، والآخرون بين منفي ومعتقل ومحتجز في بيته عاطلًا.. جعل الكبير والصغير مطايا لذلك المأبون منكوتمر.. آه.. منكوتمر.. ملعون يوم جُلب من بلاده وبيع على دكة المماليك في سوق النحس! لولاه لصار حال لاجين غير الحال.. ولصار الأمر لنا بعد مقتل خليل!»

عدّل كرجي وضع الكلفتاه (عمامة مملوكية صغيرة) على رأسه، أراح ظهره على مقعده، وأجاب: «المشكلة يا صديقي أن لا سبيل للتخلص من أحدهما وترك الآخر».

جلس طغجي أمامه وسأله، رغم فهمه المغزى المبطن لقوله: «فما العمل إذن؟»

شرد كرجي مكملًا، كأنما لم يسمع سؤال زميله: «رأس منكوتمر هي ما نبتغي، ولكن التخلص منه لن يمر مر الكرام، فالسلطان سيغضب لنائبه ومن يعدّه في مكان الابن، وهو لا يقبل فيه قولًا أو مراجعة، فما بالك بأن يصيبه مصاب ولو على سبيل الحادث المدبر.. فخلف رأس منكوتمر ستطير رؤوس في مقدمتها رأسينا».

مال نحو طغجي، وركّز نظراته الحادة على عينيه، مردفًا: «فما المخرج من هذه الأحجية المعقدة؟»

بقي مقدم البرجية صامتًا ينتظر أن يكمل محدّثه حديثه.. والتقط هذا ما يحمله سؤاله من إجابة جاهزة، فعاد للاسترخاء في جلسته، وبقي صامتًا قليلًا، ثم قال: «لو أنني أعرف أن إطاحة منكوتمر ممكنة مع الإبقاء على لاجين لفعلتها منذ زمن.. لكن.. هذا ما جنى مولانا السلطان على نفسه.. وقديمًا قالوا إن ولد السوء يجلب لأهله اللعنة.. فلا بد إذن مما لابد منه..»

لم ينطق أيهما بعدها ببنت شفة، لكن نظرات تفاهمهما حملت الكثير..

* * *

«كان الملك المنصور لاجين متزوجًا ببنت الملك الظاهر بيبرس، وكانت ديّنة عفيفة، فحكت أنها رأت في المنام، ليلة الخميس قبل مقتل السلطان بليلة واحدة، كأن السلطان جالس في المكان الذي قُتِلَ (بعد ذلك) فيه، وكأن عدة غربان سود على أعلى المكان، وقد نزل منها غراب فضرب عمامة السلطان فرماها عن رأسه، وهو يقول «كرجي كرجي»، فلما ذكرت ذلك للسلطان قالت له: أقم الليلة عندنا. فقال السلطان: ما ثَمّ إلا ما قدّره الله»، وخرج من عندها إلى القصر»

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي

* * *

ـ القاهرة ـ يناير ١٢٩٩م

انتهى السلطان لاجين من قراءة ما في الرقعة، ثم ألقاها جانبًا، ووقف صامتًا يتطلع عبره إلى القاهرة النائمة..

قطع قاضي القضاة صمت السلطان بسؤاله: «أخبار من الشام؟»

التفت له لاجين ليجيبه، ولكن أذان العشاء ارتفع، فجلس وهو يتمتم بالترجيع وراء المؤذن، ثم أجاب: «أجل.. غازان خان المغول يستعد لدهم الديار الحلبية».

ـ «هي الحرب إذن».

تنهد السلطان وقال: «لا مفر».

عبث ببعض القطع المتراصة على طاولة الشطرنج بينه وبين القاضي، وتمتم بشرود: «أخشى ما أخشاه ألا يمتد بي العمر لمجاهدة غازان».

سارع قاضي القضاة يقول: «أطال الله بقاء مولانا»، فعلت شفتا لاجين ابتسامة بها من المرارة قناطير، وهو يقول بشرود: «يا شيخنا.. تعلم أن حديث»من قَتَلَ يُقتَل« صحيح»..

صمت القاضي حرجًا وقد أدرك ما يعنيه سلطانه، إلا أن هذا نفض شروده سائلًا إياه بنبرة بها من الاستجداء ما لا يُنكَر: «فهل للقاتل في قتله كفارة عمّا اقترف؟»

خفض الشيخ عيناه متمتمًا وقد ازداد حرجه: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

تراجع السلطان في مقعده قائلًا باستسلام: «لله الأمر من قبل ومن بعد.. هو أرحم الراحمين».

* * *

«واتفق أيضًا أن في الليلة التي قُتل فيها لاجين ظهر في السماء نجم له ذنب يخيل لمن رآه أنه قد وصل إلى الأرض. فلما رآه لاجين تعجب منه،

وتمعّر (عبس) وجهه، وقال لقاضي القضاة حسام الدين وهو معه: «ترى ما يدل عليه هذا النجم؟» فقال: «ما يكون إلا خير»، فسكت لاجين ثم قال «يا قاضي حديث كل قاتل مقتول صحيح»، وتغير تغيرًا زائدًا. فشرع الحسام يبسطه ويطيب خاطره، وهو يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وجلس وكررها، فقُتِلَ في مجلسه هذا»

السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزي

* * *

طرقتان على الباب، ثم انفتح ليدلف الأمير كرجي ومعه الأمير نوغاي.. قبّلا الأرض بين يدي السلطان، الذي سألهما: «أتممتما العمل؟»

أجابه كرجي «أجل».

عاد ليسأل «والمماليك البرجية؟»

قال كرجي، وهو يتشاغل بإصلاح وضع شمعة في شمعدان معلق بالحائط: «ذهبوا إلى مهاجعهم وأغلقنا خلفهم الأبواب».

لم يلحظ لاجين أن كرجي قد ألقى بفوطة صغيرة على النمجاة (سلاح متوسط الطول بين الخنجر والسيف يحمله السلطان) الموضوعة على منضدة قريبة، فأخفاها عن نظر السلطان..

ابتسم لاجين، وقال موجهًا حديثه للقاضي: «تعرف يا شيخ.. لولا كرجي وتأييده لي عند انعقاد مجلس الأمراء، بعد خلع كتبغا، ما وصلت للسلطنة».

أحس كرجي غمزة في كلام السلطان، كأنما يدرك هذا الأخير ما يدبر له.. تبادل مع نوغاي نظرة سريعة، وحاول أن يرهف السمع ليتأكد أن سلطانه لم تبلغه أصوات المماليك المتربصين الحاملين سلاحهم في الدهليز خارج القاعة، ثم سارع للانحناء وتقبيل الأرض مجددًا بين يديه..

اعتدل قائلًا: «ألا تصلي العشاء يا خوند؟»

نظر له لاجين في صمت، مصوبًا إلى عينيه عينان لا تطرفان، ثم قال ببطء: «قد وجبت يا كرجي!»

اعتدل السلطان باتجاه القبلة خلف القاضي الرافع للإقامة.. قطع ترديده التكبيرة الأولى صفير يعرفه جيدًا.. صفير نصل حاد ضخم يشق الهواء.. أحس صاعقة تجتاح أعلى صدره أعقبها وهن مفاجئ.. أدرك أن كتفه قد انخلعت عن جذعه، وأن ذلك السائل الملتهب كحمم بركان هو دمه المتدفق عبر الجرح العميق.. وهو يلتفت نحو صاحب الضربة الغادرة غابت المرئيات المحيطة عن وعيه، وهو يرى نفسه بزاوية الطائر من أعلى، وهو يهوي بنفس الضربة منذ سنوات على كتف الأشرف خليل بن قلاوون.. حاول استجماع بقايا قواه مزيحًا مشهد الذكرى الدامية، والتفت لكرجي ونوغاي المستلين سيفي الغدر.. دفعته غريزة البقاء للوثوب على كرجي وحمله بقوة مذهلة ليضرب به الأرض ويجثم فوق صدره، عامود نار مر

عبر قدمه دفعه للالتفات، ليدرك أن نوغاي قد تناول النمجاة وهوى بها على رجله فقطعها.. تدفقت آخر قواه عبر الجرحين البشعين، فتمدد أرضًا مستسلمًا لمصيره، وعندما انفتح الباب بعنف لافظًا حفنة من المماليك المتلهفين للاشتراك في الحفل الدامي، حرص على أن يمنح قتلته ابتسامة هازئة أخيرة، قبل أن تهوي عشرات السيوف الثقيلة بعشوائية على بدنه، لتتناثر شظايا جسده على جدران القاعة ومقاعدها.. وحتى عندما تدحرج رأسه المشقوق في عدة مواضع ليستقر بين قدمي القاضي المذعور المأخوذ بالمفاجأة، كان بمقدور هذا الأخير أن يميز بين لحم الوجه الممزق تلك الابتسامة الساخرة، التي بعثتها ربما لحظة تَكشُّف أخيرة أنبأت القتيل عن مصير قتلته المظلم..

* * *

لم يُضع كرجي وقتًا، ففور إنهائه مهمته الدامية سارع لملاقاة شريكه طغجي، وتوجها إلى دار منكوتمر، وأحرقا بابها، ثم اعتقلاه وألقياه في جب مخصص لحبس المغضوب عليهم داخل أسوار القلعة..

وفي الجب فوجئ منكوتمر ببعض من أمر بنفسه باعتقالهم، فرحبوا به بحفل دامٍ نالوا فيه من جسده ونفسه إطفاءً لغليلهم، ثم أخرجه كرجي وذبحه على حافة الجب، وألقى جثته مجددًا ليستكمل السجناء حفلهم الانتقامي..

* * *

يخطئ البعض فيحسبون أن التاريخ يعيد نفسه، وإنما ـ في حقيقة الأمر ـ الإنسان هو من يعيد ارتكاب أخطائه..

فكرجي وطغجي المتآمران، ومن معهما، كررا خطأ من سبقوهما من قتلة سلاطين المماليك، فحسبا أنهما يستطيعان ببساطة قتل السلطان ثم الوثوب على كرسيه.. يريدان تكرار تجربة الظاهر بيبرس مع قطز، وما يعرفان أن الزمان غير الزمان.. وأن أمام الطامح لامتطاء العرش واجبات من تحالفات وتربيطات ومواءمات.. فبينما أوهما شركاءهما في المؤامرة أنهم يعيدون الناصر محمد بن قلاوون إلى العرش، خططا لأن يصبح كرجي سلطانًا وطغجي نائبًا، فلما اكتشف الأمراء ذلك اندلعت معركة ضارية انتهت بمقتل كل من كرجي وطغجي في اليوم التالي لقتلهما لاجين.. وأعاد أهل الحل والعقد الجدد الناصر محمد، وحلفوا له أيمان الولاء، وجعلوا كلًا من الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار وصيان عليه..

واستغل الأميران صغر سن السلطان، فتسلطا على الدولة وتحكما بها، وحجرا على صاحب العرش حتى في نفقاته، وضيقا عليه حتى غافلهما وهرب من القلعة، من القاهرة، من مصر كلها، وتوجه باختياره لمنفاه في الكرك (بالأردن حاليًا).. وتشاور الأمراء فيمن يولونه مكان السلطان الخالع نفسه، فاتفقوا على أن يصير بيبرس الجاشنكير سلطانًا وسلار نائبًا له..

* * *

وبعيدًا عن قلعة الجبل، والسلطان الجديد المزهو بنفسه وهو جالس على العرش والأمراء يقبّلون الأرض بين يديه، كان الشاب الناصر محمد بن قلاوون يعد عدّته لاستعادة عرشه، فما كان اعتزاله إلا انسحابًا تكتيكيًا، تعقبه هجمة ارتدادية عنيفة من شأنها أن تكتب للسلطان الجديد ـ بيبرس الجاشنكير ـ مكانًا في سجل سلاطين المماليك المسفوكة دماؤهم على مذبح العرش...





(IX)

المظفر بيبرس الجاشنكير.. السلطان المطرود بزفة من الشعب

القاهرة ـ قلعة الجبل

فبراير ١٣١٠م

ما كان يمر به السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير هو أكثر ما يستحق أن يوصف بأن العالم يتهاوى من حوله!

تابع بنظراته الزائغة جنده وهم يقومون ـ عمليًا ـ بنهب خزائن القلعة تنفيذًا لأوامره، ليصطحبها معه إلى منفاه، ثم بعد بلوغه مأمنه يُعلِن الأمراء للعامة رسميًا نزوله عن الحكم للناصر محمد بن قلاوون، المعسكر بجيشه وأنصاره عند حدود مصر والشام، مستعدًا لدهم البلاد واسترداد عرشه

مجهود سنوات من الرقص على أحبال السياسة والسلطة يُسحَق كعود خوص هش دعسته قدم فيل..

استوقف بعض رجاله وسأله عن نائبه «سلار» أين اختفى، فأجابته نظرات الخيبة الصامتة..

عاد بأفكاره للناصر محمد.. بحق الله! لقد أهمل أمر هذا الفتى، غرّه تكرار وضعه على العرش وخلعه عنه.. المرة الأولى كانت تنصيبه وهو ابن تسع سنين بعد مقتل أخيه الأكبر خَليل، ثم خلعه كتبغا وحبسه في الحرملك، لينفيه بعدها للكرك، ثم خلع لاجين كتبغا، وأرسل للناصر يخبره أنه وإن تلقب بالسلطان فإنه في حقيقة الأمر ينوب عنه حتى يرشد، فيرد له عرشه مقابل أن يصبح هو ـ لاجين ـ نائبًا على الشام كما كان سابقًا، وبغض النظر عن مدى اتفاق نوايا لاجين مع وعده؛ فإن الناصر قد عاد لكرسي السلطنة وهو ابن أربعة عشر عامًا باتفاق الأمراء عليه بعد مقتل لاجين، وتربع السلطان المراهق على العرش، وحلف له الأمراء أيمان الولاء، وصار سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير «الإستادار» (القائم بإدارة البيت السلطاني ونفقاته واحتياجاته)..

بيبرس وسلار متنافسان وحليفان في آن واحد، لم يمنع اختلاف الجنس ـ فبيبرس جركسي، وسلار مغولي ـ اتفاقهما، ولم يمنع توافق المصالح توجيه كل منهما بعضًا من نغزات المهاميز في جنب الآخر.. يُعيّن بيبرس أحد رجاله وزيرًا، فيضع سلار أحد أتباعه كاتبًا للسر، يدعم أحدهما

بعض الأمراء فيؤيد الآخر خصومهم، لكنهما يدًا واحدة على مبدأ واحد:
التضييق على الناصر في تصرفاته، ومحاصرته بحيث لا يكون نصيبه من السلطنة سوى الاسم دون الفعل.. ابتلعا البلد عمليًا، وانشغلا ومعهما باقي الأمراء في تبادُل المعموليات والمعموليات المضادة، حتى انهار الأمن الداخلي واستقوت عصابات عربان الصعيد، فصار المنسَر (اللصوص المسلحون) يهاجمون القرى ويعبثون بها.. ولأن أهل مصر أبناء نكتة، فقد غيّر أكبر شيخين للمنسر اسميهما، فحمل أحدهما اسم بيبرس والآخر اسم سلار، كأنما يقولان ضمنيًا «نحن لصوص وأنتم لصوص، فقط نحن نسرق بعض المواشي والغلال، وأنتما تسرقان الدولة كلها».. ولأن السلطة لا تملك روح الدعابة؛ فقد خرجت تجريدة من القاهرة لتدهم الصعيد وتوقع بالعربان مقتلة مريعة.. هل تعرف التوسيط؟ هو ببساطة وسيلة إعْدام بضرب أسفل السرة بسيف حاد لينفصل النصف السفلي للجسد عن ذلك العلوي وتتهدل الأمعاء إلى الأرض.. حسنًا.. بعض المؤرخين تحدّثوا عن قيام جنود سلار وبيبرس بتنفيذ هذا العقاب بحق نحو عشرة آلاف من عربان الصعيد!

ثم يحصل الأميران الحليفان/ الخصمان على هدنة بسيطة من التآمر الداخلي عندما هدد المغول الشام، ثم بعد الانتهاء ـ مؤقتًا ـ من الخطر المغولي عادا للمعموليات والمهاميز...

عشر سنوات على هذا الحال، الناصر له لقب السلطنة والدعاء على المنابر، وبيبرس وسلار لهما الفعل والحل والعقد.. كيف غفلا عن أن

تلك السنوات كانت كافية ليختفي ذلك الطفل المذعور المرتبك ـ محمد بن قلاوون ـ ويحل محله شاب شديد الدهاء، يجيد التخطيط لاسترداد ما يراه حقًا له؟

لم يحسا بخطره إلا عندما عرفا، من عيونهما المبثوثة حوله، أنه اتفق مع الأمير بكتمر الجوكندار على اعتقالهما فور صعودهما للقلعة للاجتماع بالسلطان، فسارعا بالتدخُل والإطاحة ببكتمر إلى بعض ولايات الشام، وزادا من التضييق على الشاب.. حتى استدعاهما يومًا وأبلغهما رغبته التوجه للحج مع حريمه وعياله، فرحبا بالفكرة على سبيل الاستراحة من شكواه الدائمة من الحجر عليه.. ويخرج الناصر وقد أحس المقربون منه من الأمراء، والمتعاطفون معه من العامة، أنه خروج المفارق لكرسي السلطنة، فيبكي الناس وهم يلوحون لموكبه، الذي ما إن بلغ حدود مصر والشام حتى انحرف عن طريق الحج وتوجه إلى الكرك بالأردن، ليرسل من هناك رسالة إلى كل من بيبرس وسلار أنه قد اختار اعتزال الحكم وأعباءه وصراعاته، وترك لهما العرش يوليانه من يشاءان..

يجز بيبرس على أسنانه وهو يتذكر هذه النقطة.. فاعتزال الحكم كان أول حركة بالغة الدهاء للفتى الذي يدرك أن وجوده كسلطان صوري، له شرعية وراثية، هو الحائط المانع للصدام بين القطبين القويين بيبرس وسلار، اللذين سارع كل منهما للاجتماع برجاله وأتباعه، الذين أخذوا يزينون له الوثوب على الكرسي.. ولأن سلار كان الأكثر دهاءً، والأقوى إدراكًا أن السلطان القادم سيكون على كف عفريت، فإنه لم يخضع لإلحاح

أنصاره، فكان أول ما نطق به في الاجتماع العام للأمراء هو «أنا ما أصلح للسلطنة، ولا يصلح لها إلا أخي هذا»، مشيرًا لبيبرس، الذي التقم رجاله الطعم، فهتفوا له وجعلوا الجاويشية (الجند) يهتفون باسمه من فوق أسوار القلعة.. وزاد سلار، فطلب أن يسمح له السلطان بيبرس ـ باعتبار ما سيكون ـ أن يعتزل السياسة ويعيش أيامه الأخيرة في دعة وسلام، فحاول هذا الأخير رد التوريطة له، وقال «إن ما كنت أنت تعمل نائب لي أنا ما أعمل سلطان!».. وهكذا كان.. فصار بيبرس هو السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير سلار نائب السلطنة وكافل المالك، ودعما ذلك بإعلان مباركة الخليفة العباسي ـ الألعوبة ـ وقضاة الشرع الشريف لذلك..

وكأنما كانت تلك فاتحة العواصف.. فكبار نواب الشام صاروا بين رافض للاعتراف بحكم بيبرس، أو منتفض عليه بعد اعتراف سابق بسبب الوعد والوعيد..

وفي نفس الوقت بلغت السلطان أنباء أن الناصر يُكثر من الركوب للصيد في أنحاء الكرك، فخشي أن يكون انتقاله إليها مجرد مناورة للاستقواء، ثم العودة لمصر وانتزاع العرش.. وفي حركة هوجاء سارع بيبرس بإرسال بعض أمرائه للناصر يطالبه بجفاء أن يعيد ما حمل معه من أموال وخيول، وأن يكتفي في الكرك بعشرة مماليك يخدمونه، ويرد الناصر مستعطفًا السلطان ومخاطبًا إياه بأن «وأنا لم أعرف أبًا لي غيرك، فأنت الذي رباني»، فيعيد السلطان طلبه بإلحاح.. وهنا تصبح للناصر ذريعة لاستعداء المتمردين

من أمراء الشام على بيبرس، فيراسلهم مخاطبًا فيهم الولاء لأبيه الراحل قلاوون، بحكم أن أغلبهم من مماليكه، ويشكو لهم مما يلقى من مضايقة السلطان له، فينضمون واحدًا تلو الآخر له، وحتى جمال الدين الأفرم ـ نائب الشام ـ الممانع للتمرد على بيبرس، يغير موقفه فينضم لجبهة الناصر، ويهتف له الناس في مسجد دمشق.. ويتسرب الجند والأمراء من القاهرة عند بيبرس لينضموا للناصر ويعلنوا له الولاء، والناصر يتقدم بكل هؤلاء حتى يصل إلى غزة، ويستعد ليدهم غريمه في عقر داره..

أما في القاهرة فقد تكالبت المصائب على السلطان.. فالنيل لم يوفِ الارتفاع المطلوب، والناس يتحدثون بأن بيبرس هذا قدمه شؤم على البلاد، فيسخرون منه ومن نائبه، ويغنون «سلطاننا ركين.. ونايبه دقين.. يجيء الماء من أين.. هاتوا لنا الأعرج يأتي الماء يدحرج» (ركين تحريف لركن الدين، ودقين لأن النائب سلار كانت لحيته خفيفة، والأعرج كناية عن الناصر لأن كان به عرج من إصابة سابقة).. ويقولون «الله يخون من يخون ابن قلاوون».. ولأن السلطان الجديد أرعن وأهوج؛ فإنه لا يمتص غضب العامة، بل يعتقل جمعًا منهم تظاهروا عند القلعة، فرسم بضرب بعضهم بالمقارع وتجريسه في القاهرة، وقطع ألسنة البعض الآخر.. ولا يردعهم هذا.. فعندما اقتربت قوات الناصر من مصر، وطلب بيبرس من الخليفة أن يجدد العهد له كسلطان للمسلمين، وأن يقرأه القضاة في المسجد الكبير؛ هتف العامة ضد السلطان بـ«لا لا نرضاه»، وعندما بلغ القاضي في قراءة الكتاب مقطعًا يتهم فيه الخليفة الناصر أنه «خارجي»،

وأن قتاله واجب، هبّ العوام وهتفوا بحياة الناصر وسلطنته، وانطلقت المظاهرات المؤيدة له تجوب القاهرة وتحاصر قلعة الجبل..

وسلار كل هذا في اختفاء ومراوغة.. وأتباع بيبرس يشيرون له كل حين بإصبع اتهام أن لابد أن له يدًا فيما يجري.. وبيبرس لا يتخذ موقفًا من ذلك.. وأخيرًا ينطق سلار وينصح السلطان بالنزول عن العرش، ومراسلة الناصر لطلب الأمان لنفسه.. وبالفعل نفذ بيبرس النصيحة، وخلع نفسه بحضور قضاة المذاهب الأربعة، وأرسل للناصر الذي كان يستعد للمعركة يبلغه قراره، ويطلب منه السماح له بالإقامة في بعض مدن الشام.. ما لم يعرفه بيبرس أن الساعة التي نزل فيها عن العرش كانت نفس ساعة وصول الناصر لمصر، وأن هذا الأخير حين بلغه خبر استسلام خصمه، صاح «الحمد لله الذي حقن دماء المسلمين».

اقترب أحد رجاله منه.. أخرجه من شروده مخبرًا إياه أن الجند قد حمّلوا الخزائن على ظهور الدواب.. فأشار له بالانطلاق وأنه سيلحق به.. بقي يتأمل الكرسي شاردًا، ثم غادر القاعة لينطلق بالقافلة قبل أن يشعر العوام بما يحدث في القلعة..

* * *

لا يعرف من أين جاء أول حجر، لكن سرعان ما انهالت على الرَكب أمطار من الأحجار والأوساخ من كل اتجاه، ثم تبعتها جحافل من العوام

المسلح رجالهم بالهراوات والسكاكين والأحجار، ونساؤهم بالسباب النسواني المسجوع والزغاريد المحرضة.. القافلة المستترة في الظلام تحولت إلى زفة دامية أحياها أهل المحروسة.. حاول الجند أن يستلوا سيوفهم لكن سيدهم المخلوع أدرك أنهم إن أسقطوا واحدًا برز عوضًا عنه عشر، فأمرهم بإلقاء حفنات من الذهب على الناس لينشغلوا بها.. لكن الناس تجاهلوا الذهب وداسوه وهم يتقدمون من موكب الفرار.. يلمح بيبرس مشاهد متقطعة.. هذا رجل أربعيني يحاول إسقاط بعض الجند عن خيلهم، وذاك صبي يصوّب إلى الرؤوس أحجارًا صغيرة حادة الأطراف، وهذه امرأة تزغرد مشلشلة بطرحتها وهي تؤدي بأصابعها رقصة بذيئة على شرف السلطان الهارب.. لا يجدي نثر الذهب نفعًا، فيعود الجند لاستلال سيوفهم وهم يسرعون بالفرار.. ورغم ضآلة عدد الجنود مقارنة بالناس، إلا أن المهاجِمين التزموا أماكنهم وأوقفوا الهجوم، وتراصوا في وضع الفُرجة، بين متكئ على هراوته وداسٍ لسكينه في حزامه، ولم يتقدم منهم سوى غلام حافٍ متسخ الوجه والملبس، سلت سرواله وصوب بوله بحماس باتجاه الرَكب الهارب وهو يُرقّص خصره بسخرية.. يستغرب المخلوع امتناع العامة عن استكمال هجومهم، ثم يدرك أنهم قد فضّلوا تركه يحيا بتلك الذكرى المخزية عن احتمال أن ينال في قتاله معهم قتلة تغسل بعض عار فراره.. أهل مصر أبناء نكتة.. وهم يجيدون توجيه النكات القاسية!

من القاهرة توجه إلى قرية أطفيح بالجيزة.. راسل السلطان طالبًا الأمان

لنفسه، شجّعه أن سلار حصل على أمان مماثل، وسُمِحَ له بالاعتزال والسفر إلى الشوبك بالأردن.. أرسل له السلطان منديل الأمان.. رغم شعوره بالاطمئنان نسبيًا، إلا أنه حاول الفرار إلى الشام، فاتخذها الناصر ذريعة وأمر باعتقاله وإحضاره إليه..

* * *

جحظت عيناه حتى اختلطت الألوان في بصره ثم اسودت الرؤية.. احتقنت عروقه وبرزت، فكأنها ستُمزق جلد وجهه المحمر، شعر بالدم السائل من جلده الممزق، من أثر ضغط الوتر على عنقه، يلوث أعلى جسده، وبوله الذي فقد السيطرة عليه يلوث أسفله.. سلخ الوتر جلد عنقه بعد أن انهار ارتكازه على قدميه، فصار معلقًا بكل ثقل جسده من الوتر القابض على طرفيه المشاعلي (الجلاد)، الذي خفف ضغطه بإشارة من يد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.. تقدم هذا الأخير من بيبرس الجاشنكير، فجذب الجلاد ضحيته مجبرًا إياه على الاعتدال في حضرة السلطان، الذي قال له بهدوء لا يشي بالإعصار المعربد بداخله: «لا لا.. لا تمت الآن.. أعط نفسك فرصة، بينما أنت تُعذّب، أن تتذكر كل مرة ضيّقت فيها عليّ وحجرت فيها على حقي.. تذكّر كم شفاعة لي في إنسان رددتها.. كم أمر لي أسقطته».. تأمل بتمعُن متشفٍ سلخة جلد متدلية من تحت الوتر نصف المضغوط على العنق، وأردف: «بل إنك

حتى ضيّقت عليّ في طعامي.. تذكّر ذلك اليوم الذي اشتهيت فيه أوزة مشوية؟ أتذكر ردك جيدًا: ماذا يفعل بالأوز.. أهو الأكل عشرين مرة في اليوم؟» داعب سلخة الجلد الدامية بطرف سبابته، ثم مسح باشمئزاز الدم العالق بالسبابة بثوب بيبرس، واستطرد وهو يشير للمشاعلي أن يكمل عمله: «لعلك إذن تُكفّر عن حرمانك إياي متعي البريئة بمنحي متعة مشاهدتك وأنت تُحرَم حتى أنفاسك الأخيرة!»

* * *

كانت لبيبرس الجاشنكير خطايا كثيرة، لكن أخطرها كانت الاستهانة بالتحوُّل الذي أصاب الناصر محمد.. سلار أيضًا دفع ثمن ارتكابه نفس الخطأ، فبعد نفيه للشوبك أُمِرَ باعتقاله وحبسه.. وعندما رفض تناول الطعام والشراب وهو في محبسه كنوع من التهديد، أمر الناصر بقطع الطعام والشراب عنه حتى مات جوعًا وعطشًا، ويقال إنهم عند فتح حبسه والعثور عليه ميتًا، وجدوه قد أكل نعله من شدة الجوع.. عاد الناصر للعرش وقد عزم على أن ينتقم من كل من استهتروا به وأهانوه.. فأطاح بكل أمراء بيبرس وسلار واعتقلهم، ووضع مكانهم رجاله.. وفي نفس الوقت شمّر ليصل ما فسد في المملكة بسبب صراع الأمراء، وتلك الفترة الطويلة من اضطراب السلطة وانعدام استقرارها..

حكم الناصر محمد بعد عودته الثالثة لمدة ٣٠ عامًا، تنفست فيها مصر

والشام الصعداء لتعطُّل صراع الأمراء وسفكهم دماء بعضهم بعضًا.. وشهدت أخيرًا حاكمًا مات على فراشه.. ولكن، بعد موت الناصر محمد بن قلاوون دارت ساقية الدم بأسرع مما كانت عليه، لتصيب الباقين من آل قلاوون، وتجعل لهم النصيب الأكبر في السلاطين المقتولين!



(X)

أبناء الناصر محمد بن قلاوون.. الشهواني، الطفل، والسفيه!

القاهرة ـ قلعة الجبل ١٣٤١م

بعد اثنين وثلاثين عامًا من الحكم، وصداماته وقراراته الصعبة، ولحظات انتصاراته وهزائمه، آن للمقاتل أخيرًا أن يترجل عن عرشه..

الناصر محمد بن قلاوون يموت..

يلتف الأمراء حول السلطان الذي داهمه المرض، لينتزعه من قمة قوته ويذهب به إلى حيث مصير كل البشر، يرقبون أنفاسًا أخيرة يعلمون جيدًا أنها ما إن تتوقف ستبدأ من جديد صراعات ومؤامرات، كانت المملكة في هدنة منها طوال حكم السلطان المحتضر، الذي أجاد ضبط

البلاد بقبضة من فولاذ.. فوليّ عهده ابنه الأمير المحبوب «آنوك» مات، وباقي أبنائه بَعدُ أحداث صغار، فلم يكنٍ له بد إلا من الوصية بولاية ابنه المنصور أبو بكر ابن العشرين، والذي إن كانت له خبرات مبكرة بالحياة العسكرية في حياة أبيه، فإنه غر مغمض العينين فيما يتعلق بخبرات الأمراء بملاعيب ومعموليات ومخامرات السياسة والحكم..

يتبادلون النظرات المُختَلَسة.. هذا يرمق خصمًا يتربص به، ذاك ينظر بعين الريبة لحليف وصديق، آخر يرسل بعينيه رسالة خفية لمتلقٍ تكفيه ومضة عين ليدرك الكثير..

أخيرًا يخرج زفير لا شهيق بعده.. تسود لحظة صمت يتبادل خلالها الجميع أسرع رسالة بالنظرات، ثم بغتة يرتفع الصياح والنواح، ويسارع الخدم لتلقف من يسقطون ـ حقًا أو تمثيلا ـ مغشيًا عليهم، والبعض يتحمس فيخلع عمامته ويلقيها أرضًا إظهارًا لعظم المصاب، بينما قلة رسمت على وجوهها علامات الحزن النبيل، واكتفت ببضع دمعات وقورة..

اختلفت ردود الأفعال، تنوعت النوايا، تعددت الخطط، لكن الكل اتفق في استرجاع عبارة واحدة من وصية السلطان الراحل، فيما يتعلق بولاية أبنائه من بعده: «إذا وليتم أحدًا من أبنائي ولم ترتضوا سيرته، جرّوه برِجله وأخرجوه وأقيموا غيره».

تلك العبارة كانت مفتاح اللعنة على من تولوا السلطنة من نسل الناصر

محمد بن قلاوون.. فقد قالها بنيّة، وتلقاها الأمراء بنوايا أخرى لا يمكن وصفها أنها حسنة!

ـ المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون.. قتيل ولاية العهد (١٣٤١م)

أحس حركةً خافتة إلى جواره فأجفل مستيقظًا، هم بمناداة الحارس لاستطلاع الأمر، لكنه تذكر أنه منذ خلعه من السلطنة من أشهر قليلة، ثم نفيه إلى قوص ـ بالصعيد ـ لم يعد ينام في قاعته بقلعة الجبل.. دقق النظر في الظلام، لا شيء.. كان يحلم إذن.. زفر بضيق، فمنذ نزوله عن العرش وانتقاله لمسكنه الحقير هذا لم يعد النوم يطيعه إلا بإلحاح وتوسل، وعليه الليلة أن يحاول الإمساك به من جديد قبل طلوع الشمس، وإلا فلا نوم إلا مع الغروب التالي.. شبح ابتسامة شهوانية مر سريعًا على شفتيه، وهو يتذكر كيف كان يطرد الأرق سابقًا في أيامه السلطانية الجليلة، تململ في فراشه وهو يتذكر تلك الدغدغة التي كانت تنتابه وهو يشم أنفاس حبيبه المملوك يلبغا اليحياوي..

غص بحمض تصاعد من معدته إلى حلقومه، وهو يقارن بين مشهد الأمراء وهم ساجدون بين يديه يقبّلون الأرض حين توليته، ومشهد دخولهم عليه بعد أقل من سنة، وإجبارهم إياه على إعلان عزل نفسه، ثم حمله مع إخواته ـ عدا كُجُك الذي تولى بعده ـ إلى منفاهم في قوص..

راجع وجوه من غدروا به: قوصون، جنكلي بن البابا، أيدغمش، طقزدُمُر.. مع استرجاع اسم هذا الأخير بالذات يحس بالرغبة في القيء

حتى يتمزق جوفه.. فطقزدمر لم يكن نائب السلطنة ومدبرها فحسب، بل كان صهره من عدة جوانب، فابنة طقزدمر زوجته، وأختها زوجة أخيه، وطقزدمر نفسه متزوج من أمه، التي كانت جارية للناصر محمد بن قلاوون، ثم أعتقها فتزوجها المذكور، وهو ـ طقزدمر ـ متزوج كذلك من الأخت غير الشقيقة للمنصور أبو بكر.. ومع ذلك فقد خامر عليه مع الأمراء فخلعوه، وجاءوا بأخيه الأصغر كُجُك ـ ابن خمس سنوات ـ ليكون ألعوبة لهم يسهل عليهم الحكم من خلفها..

امتعض وجهه وهو يتذكر مقالتهم له يوم خلعه «سلوكك لا يليق بسلطان».. ماذا يريدون؟ ألم يبذل لهم النفقة؟ ألم يترك لهم شئون البلاد يديرونها كما يشائون؟ فيم يضرهم شغفه بالمملوك يلبغا، وماذا في زواجه في ليلة واحدة من جاريتين له؛ يسيء للتقاليد السلطانية؟ بل إنهم حين ضيّقوا عليه في أمر تقريبه أصحابه يلبغا وملكتمر وغيرهم، وأمروه من خلال طقزدمر ـ الذي كان يعده في مكان الأب ـ أن يخرجهم من القلعة، فعلها وتجرع الغصة راضيًا ليرضيهم.. وليته أرضاهم، بل إن إبعاده المماليك المقربين جعل نفوس مماليكه ومماليك أبيه تتغيّر عليه، فلم ينجده واحد منهم وقت الجَد!

«سلوكك لا يليق بسلطان».. تمتم بها بسخرية ممتعضة من بين أسنانه، مقلدًا طقزدمر وهو يعبس في وجهه، ويكررها مرة تلو الأخرى، حتى مرّته الأخيرة وهو يعلمه خلعه.. كان كلما سمعها منه يلقي في سره سُبة مصرية مركبة، ذات صلة ببعض حميميات الأم، سمع بعض العوام يتبادلونها..

وهل أنا سلطان بحق لتلزمني مسلكهم؟ أم إنك تنتقي لي من مميزات السلطان ما يضيق به صدري، وتتقاسم مع الأمراء منها ما تنشرح له صدوركم وتنفشخ له أساريركم؟

باغته تيار هواء بارد أخرجه من أفكاره، قام متأففًا من تحت غطائه الثقيل، واتجه للنافذة المفتوحة، رغم أنه يتذكر جيدًا إحكامه إغلاقها من قبل.. عندما أمسك بمصاريع النافذة أصابته رعدة حسبها من برودة المزلاج المعدني في يده، لكنه أدرك أنها بسبب تلك الكف الضخمة اللحيمة التي حطت على كلتا يديه، لتلوي ذراعيه خلف ظهره، بينما تدس يد ثالثة خرقة عطنة الرائحة في فمه قسرًا..

لم يميز ملامح تلك الظلال التي انشق عنها الظلام، فحملته مكبلًا إلى فراشه، وبطحته على وجهه.. حسب أولًا أنهم بعض لصوص عربان الصعيد، طمعوا فيما قد يحمل سلطان سابق، إلا أن الوتر الحاد الذي انغرس في عنقه أنبأه حقيقة الأمر، فتشنج جسده في رقصة مقاومة يائسة لا مبالٍ بتمزق جلد عنقه وانخلاع كتفه من شدة الحركة.. صعد الحمض سريعًا من جوفه باتجاه فمه، لكن ذلك السكين الحاد الذي تدخّل في الصراع قطع على قيئه طريق الصعود، ليتدفق مع دمه عبر عنقه المقطوع..

وفي الصباح وجد أهل البيت سلطانهم السابق جسدًا بلا رأس، فالرأس حُمِل إلى القاهرة ليوضع بين يديّ قوصون، نائب السلطان الجديد، ليطمئن أن ذلك السابق لن يثير المشاكل مطالبًا بالعودة للعرش،

بذريعة ولاية العهد من قِبَل أبيه الراحل.. وأن الباقين سيكونون مجرد أطفال يسهل التبديل بينهم حسبما تقتضي الظروف..

* * *

ـ الأشرف كُجُك بن محمد بن قلاوون.. جعلوه فانجَعَل! (أواخر ١٣٤١م ـ أوائل ١٣٤٢م)

يمكننا أن نلخص تاريخه القصير ـ خمسة أشهر تقريبًا ـ في مثال قرأته قديمًا هو «جعلوه فانجَعَل»..

فقد جاءوا به طفلًا في الخامسة، وضعوه على العرش وباسوا له الأرض، وتولى الأمير قوصون منصب نائبه ومدبّر مملكته..

ولأن المساخر في بر مصر لا تأتي فرادَى، فإن الفتنة بين النائب قوصون وباقي الأمراء قد اشتعلت على موقف يجمع بين كونه تافه ومشين.. فقوصون ـ صاحب العلاقات المتوترة أصلًا بمماليك الراحل الناصر محمد بن قلاوون ـ كان قد استدعى يومًا أحد المماليك المعروفين بالوسامة وجمال الشكل، فتمنّع المملوك أولًا، ثم ذهب بعدها وبات عنده ـ وكل لبيب بالإشارة يفهم ـ وبعدها طلب مجموعة من المماليك الآخرين، فرفضوا وأعلنوا عصيانهم وتمردهم، ومعهم المماليك السلطانية، وقالوا في حقه ما يوصف بلغة المماليك ـ تأدبًا ـ بأنه «ما لا يليق».. طبعًا جدير

بالذكر أن نقول إن قوصون هذا هو من كان يقود حملة لوم السلطان السابق، المخلوع/ المقتول المنصور أبوبكر، على عشقه لبعض مماليكه، بينما هو في حقيقة الأمر كان لا يقصد من لومه إلا أن يلهي السلطان ويرازيه، ويضع ما فيه فيه كما يقول المثل الشهير! طبعًا السبب المذكور للفتنة ما هو ـ غالبًا ـ إلا عامل مؤدٍ للانفجار، ولكن النار كانت بالفعل تحت الرماد لأسباب ترتبط كلها بالتنافس على الحكم..

أرسل قوصون يحذر كبار الأمراء من عواقب العصيان والتمرد، فتراجعوا بشكل تكتيكي، وتوسطوا بينه وبين المماليك السلطانية، بل وأرسلوا له المذكورين كما أمر، بينما اتفق المماليك السلطانية على التخلص من قوصون.. وبشكل أو بآخر علم بتدبيرهم، فاشتعلت القاهرة بالاقتتال الداخلي، خرج المماليك المتمردون وناصرتهم العامة، بينما كان مع قوصون أتباعه، بل والأمراء، حتى من يرفضون سلوكه وسياسته منهم، فلم يكونوا مهما كان لينصروا مماليك وعوام على أمير من طبقتهم..

ولكن سكوت الأمراء على قوصون بلغ حد نهايته بقتله السلطان السابق، وإعدامه الأمير بشتك ـ الذي كان قد اعتقله من قبل لإنهاء الصراع السلطوي بينهما ـ فانقسموا بين مؤيد له وساخط عليه، وهذه المرة رجحت كفة أعدائه، فكسروا قواته في قتال عنيف ثم اعتقلوه..

كل هذا والسلطان الطفل في ذهوله عن الأحداث التي تجري أصلًا باسمه..

وكما جعلوه سلطانًا، جاءوه وجعلوه مخلوعًا، ثم جعلوه حبيسًا في القلعة، وبعد أربع سنوات قرر بعضهم لسبب لا يعلمه إلا الله، وقاتله، أن يجعلوه «قتيلًا»، بل وحتى لم يُعرَف كيف مات، ولماذا، ومن نفذ الأمر، بل ومن أصدره.. ببساطة، كان عودًا أخضر هشًا وضعه القدر في طريق قطيع من الثيران المندفعة!

* * *

ـ الناصر أحمد.. السفيه كما يجب أن يكون (١٣٤٢م):

«لا يدخلن عليّ أحد إلا أصحابي، وإن أردت منكم شيئًا بعثت أنا لكم، فلا تكدروا صفو أوقاتي!»

لم يعتد الأمير أيدغمش مثل تلك الوقاحة في مواجهة الأمراء الكبار..

كانت الصراعات قد أسقطت سيطرة الأمير قوصون على الحكم، وتضاربت القوى مطيحة بهذا وذاك، حتى صُبّت الأحداث في صالح أيدغمش أمير أخور (المسئول عن الخيل السلطانية)، ليصبح هو الرجل الأقوى في البلاد.. فقرر مع أمراء الجناحين المصري والشامي للمملكة استدعاء الناصر أحمد بن المنصور محمد بن قلاوون من منفاه بالكرك ليتولى السلطنة، رغم ما في ذلك من مخالفة لوصية أبيه.. فإن كان الخيار بين طفل أو مراهق عاجز أو رجل بالغ ناضج يعاني بعض المجون؛ فلنأخذ أهون الضررين.. لكن

ما سمعه توًا من السلطان يقول بخطأ رؤيتهم.. تمتم بالترحُم على الناصر محمد، فالآن أيقن من بُعد نظره حين أقصى سيء الأدب هذا عن ولاية العهد.. لم يعمل خاطرًا لأن أكبر الأمراء ركبوا ليذهبوا إليه في الكرك ويحضروه، فأرسل يأمرهم بالمكوث في غزة وانتظاره، دون أن يكلف نفسه عناء إبلاغهم موعد وصوله.. ثم باغت الجميع بدخوله القاهرة ليلًا مع زمرة من أوباش الكرك، الذين اعتاد قضاء أوقات مجونه معهم هناك.. بل لم يتجشم عناء الجلوس مع أمرائه وتحيتهم، فقابلهم بفتور، وقال لهم بنبرة المتفضِل المتأفف أنه لم يطلب السلطنة، وكان مستريحًا من عنائها، ولكنه جاء فقط لإلحاحهم عليه! ثم أولاهم ظهره واصطحب رفاق عربدته إلى جناحه الخاص، وأغلقه عليه.. ولم يره أحد، بل إنه حتى لم يخرج لصلاة العيد التي صادف وصوله القاهرة الليلة السابقة لها!

دخل إلى قاعة الحكم وهو يتحاشى نظرات الأمراء حرجًا، تقدم منه الأمير قطلوبغا الفخري، ووضع يده على كتفه بحزم سائلًا: «هل فعل ما توقعت؟»، أزاح أيدغمش يده وجلس زافرًا بحنق، فصاح قطلوبغا بالأمراء: «قلتها لكم! لقد أهنّا أنفسنا، وحططنا من شأن السلطنة، حين جئنا بسفيه متهتك لهذا الكرسي!!»

تدخَل الأمير طشتمر الشهير بـ«حمص أخضر»، فقال محاولًا تهدئة غضبة رفيقه: «الفتى بعد غر قليل الخبرة، ونحن حوله نصلح إن شاء الله».

أطلق قطلوبغا نخرة استنكار وصاح به: «الفتى؟! هذا البغل فتى؟!

بالله ألم ترى مشيته كالغواني وتراخي أطرافه ونظرة الفتور في عينيه؟ هذا سلطان المسلمين؟!»

همّ طشتمر بالإجابة، فأشار له أيدغمش بالانتظار، وقال هو لقطلوبغا: «أمير قطلوبغا، البديل الوحيد هو طفل ساذج يتصارع الأمراء على من يركبه!»، همّ بعض الجلوس بالاعتراض استنكارًا لقوله، فأوقفهم بإشارة من يده مردفًا بصرامة أكبر: «يا أمراء.. دعونا لا نخدع أنفسنا.. أنتم تعلمون أن هذا هو ما يحدث دائمًا!» التفت لطشتمر وقال: «وأنت أمير طشتمر، ما دمت تراهن على صلاح حاله، فلتقم أنت لذلك!»

تساءل طشتمر: «كيف؟»

تحسس أيدغمش كلماته وهو يقول: «أنت تعمل نائبًا للسلطان، وتدبر معه الدولة وتكون رأس مشورته.. وأنا وباقي الأمراء نتوزع في أعمال خارج القاهرة».

ابتسم طشتمر بفهم: «تريد تورطني أنا يا أمير أيدغمش؟»

- «لا أورطك ولا تورطني.. أنت تثق بقدرتك على إصلاحه، أرنا همتك، فإن نجحت شكرنا لك ذلك، وإن أخفقت كفينا شر ما هو آت، واستطعنا التدبير لإنقاذ المملكة».

* * *

هذه المرة كان أيدغمش بعيد النظر.. فالاقتراب من سفيه صاحب سلطان ـ ولو على صفة الصداقة ـ هو كالاقتراب من أعمى أرعن يحمل نارًا يرقص بها.. نفس المخاطرة..

وقد أصابت النار طشتمر بالفعل، فالسلطان سخط من محاولاته إخراجه من انغماسه في التهتك والعربدة، ومنعه من مخالطة رفاقه الكركيين الذين لا ينبسط وينشرح إلا معهم.. فدبر السلطان خلع طشتمر من نيابته، واعتقله، بل وطالت ناره من انتبذوا لأنفسهم مكانًا قصيًا عنه، فاعتقل الأمير قطلوبغا رأس معارضيه، وأرسله إلى سجن الكرك مع طشتمر..

وقبل أن يفيق الأمراء من هذه الصدمة؛ باغتهم السلطان السفيه بأخرى أشد، فقد حمل خزائن السلطنة والخيل السلطانية وثروات القصر، وحتى مجوهرات جواري أبيه، وأخذ الخليفة العباسي، وبعض المماليك، ورجال الحكم، وتوجه بهم جميعًا للإقامة بالكرك.. وهناك سار على نفس سياسة اعتزاله الجميع، إلا رفقته الفاسدة..

عبثًا حاول الأمراء مراسلته وحثه على العودة للقاهرة، فلم يزد على أن قال في رده: «أنا السلطان أمكث حيث شئت من المملكة!»

وكأنه لا يخرج من حماقة إلا لأخرى، فيومًا ما بوغت الأمراء في القاهرة بالخبر القادم من الكرك، أن السلطان قد قتل كلًا من طشتمر وقطلوبغا.. هنا تفجر غضب الأمراء، وأعلنوا خلع السلطان، وأقاموا مكانه أخاه إسماعيل، الملقب بالصالح.. وأرسل السلطان الجديد يطلب من أخيه أن

يعيد ما نهب من ثروات وخزائن، فرفض هذا الأخير، فاضطر السلطان وأمراؤه لإرسال تجريدات حربية لاعتقاله وإحضار الخزائن، فتحصن بالكرك وتزوّد بالمؤن والاستعدادات..

وطوال سنتين كانت التجاريد تروح إلى الكرك وترجع خائبة.. حتى فوجئ السلطان المخلوع بنفاد أمواله، بين تحصيناته المبالغ فيها، وحفلات مجونه باهظة التكاليف.. فانفض عنه رفاقه، وكان أهل الكرك قد ضاقوا بسلوكه، فراسلوا قلعة الجبل لتخليصهم منه، فاستجاب السلطان وأمراؤه بإرسال حملة جديدة، باغتت أخاه العاجز هذه المرة عن التصدي لها...

وهكذا تكالبت ثمار حماقات وسفاهة الناصر أحمد عليه، وسرقه السكين، لينتقل سريعًا من سلطان متوّج، لمخلوع متحصن، لسجين مقيد، ثم لجسد ملقى بلا رأس، ورأس محمول إلى القاهرة ليوضع بين يديّ أخيه السلطان إسماعيل..

* * *

نعمت المملكة بفترة هدنة من الاستقرار النسبي لمدة ثلاث سنوات، هي مدة حكم السلطان إسماعيل الملقب بالصالح، رغم معاناته من مرض الصرع المزمن، وتعرضه لمحاولة انقلابية من أخيه رمضان، ومرور الدولة بأزمة اقتصادية عابرة، وتعرض العلاقة بين الأمراء الكبار للتوتر،

مما دفعهم ـ كالعادة ـ للصدام، ولكن رغم ذلك فإن الدولة بقيت في حالة استقرار قياسًا بما سبق من اشتعال للأحداث، خاصة أن السلطان كان من متجنبي المشاكل، متدينًا هادئ الطباع، ولم ينتقص منه شغفه بالجواري، بالذات عوّادة سوداء اسمها «اتفاق».. مرت إذن ثلاث سنوات مسالِمة..

لكنها كما قلنا كانت مجرد هدنة، فبموت السلطان إسماعيل سنة ١٣٤٥م، وتولي أخوه الكامل شعبان الحكم؛ عادت ساقية الدم للدوران بجنون...



(XI)

أبناء الناصر محمد بن قلاوون.. المتهتك.. السفاح.. المتمرد

ـ الكامل شعبان.. عار السلاطين (أواخر ١٣٤٥م إلى ١٣٤٦م)

القاهرة ـ الجزيرة الوسطى (الزمالك حاليًا) ـ ١٣٤٥م

جفل الخادم من تلك اليد الأنثوية التي جذبته بغتة لداخل ذلك الخُص (الكشك)، فكاد يقع على وجهه، لولَا أن أسندته صاحبة، اليد التي بدت مهنتها ونيتها من زيها وزينتها والحركة الشهوانية لشدقيها، وهي ترمقه من أعلى إلى أسفل، وبالعكس.. دفعها وانطلق مغادرًا المكان، وهو يبحث بعينيه عن خيمة السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون.. أخيرًا بلغها، فانحنى مُقبّلًا الأرض، ثم اعتدل وقدّم له الرسالة، رامقًا بطرف عينه زمرة الحرافيش والسوقة المحيطة به.. فمنذ توليه السلطنة فارق السلطان،

الذي لم يكد يغادر مرحلة المراهقة، أصول الجلوس والتحركات السلطانية، فأحاط نفسه بالحرافيش والغاغة، بالذات من كانوا منهم يمارسون المعالجة والتلبيخ (المعالجة هي رفع الأثقال، والتلبيخ هو القتال بالنبابيت، وكانتا تمارسان من الفئات المتدنية، وقد يقع في التلبيخ ضحايا)..

قرأ السلطان الرسالة، ثم رفع رأسه للخادم، الذي خفض عينيه تأدبًا في ترقب حذر.. أشار له السلطان أن يقترب، بينما هو يتناول كأس خمر من جواره.. لفّ الرسالة وغطس طرفها في كأسه، ثم رفعها فوق فمه وعصرها لتسقط قطرات الخمر على لسانه.. ضجّ الحضور بالضحك، ومعهم الكامل شعبان، الذي أعاد كأسه لمكانها، وألقى الرقعة جانبًا، ثم قال بلهجة غاضبة مفاجئة: «أحيانًا أكاد أن أنسى من منا السلطان؟ أنا أم الأمير أرغون؟ هل حسب أن كونه زوج أمي يعطيه الحق أن يراجعني فيما أفعل؟»

استرجع شعبان الموقف وهو راكب فرسه إلى جوار الأمير أرغون العلائي، زوج أمه ورأس مشورته ومدبر مملكته، وهما يستعدان للمواجهة المسلحة مع الأمراء المتمردين على السلطان.. أرغون مخلص جدًا.. فرغم إخفاقه في إصلاح السلطان المتهتك، ورده عن انحلاله، إلا أنه لم يتبرأ منه أو يتركه، حتى وهما مقبلان على مواجهة معروفة نتيجتها مسبقًا، فالثورة على السلطان المتهافت على عربدته قد حاصرته من كل مكان..

فالكامل كان النقيض تمامًا للقبه الملكي.. فمنذ أيامه الأولى في السلطنة

فاحت رائحة انحلاله، فقد كان يحمل حريمه وجواريه، ورفاقه من السوقة وأرباب الغرز والمحاشيش، إلى بلدة سرياقوس التي اتخذها منتجعًا له، فيقضون أيامًا بين سُكر وانسطال وعربدة، يطلق خلالها العنان لهم في انتهاك حرمات أهل البلدة، والعبث بأموالهم وأعراضهم، إلى حد اغتصاب حريمهم.. وكان يستدعي إلى حضرته حاملي الأثقال والمتضاربين بالنبابيت واللاعبين بالحمام، لينشرح معهم ويرفعون الكلفة..

ويبدو أن انحلال السلطان وتهتكه لم يكن مجرد سلوك شخصي، بل كان فلسفة حياة، فقد قرر أن يفتح الباب على مصراعيه لنمط حياته، فأقام بالجزيرة الوسطى بنيل القاهرة أكشاكًا خصصها كحانات وبيوت دعارة.. أي إنه كان يمارس مهنة «القوادة»، ولكن بشكل رسمي سلطاني!

ومرة ثانية يتدخل أرغون العلائي، فيداهم الجزيرة بجنوده، ويحرق الأكشاك ويعاقب أهل الرقاعة المقيمين بها..

ولأن الفاصل بين السلوك الشخصي لصاحب السلطة وسلوكه الإداري خيط رفيع، فقد انتقلت عدوى الفساد من شخص السلطان لسياساته، فبينما كان الجفاء بين الكامل شعبان وأمرائه هو سيد الموقف لرفضهم سلوكه، ربطته علاقة صداقة قوية بأمير يُدعَى شجاع الدين غرلو، كان بمثابة كارثة على الدولة، فقد تدرج ـ بفضل علاقته بالسلطان ـ في المناصب، وأحدث سُنّة ملعونة في النظام المملوكي، وهي أن يُفرَض على من يطلب تولي وظيفة رسمية أن يدفع مبلغًا لبيت المال يسمى «البرطيل».. أي إنها رشوة ولكنها ـ كالقوادة سالفة الذكر ـ رسمية وقانونية!

لم يكن من الغريب إذن أن ينفد صبر الأمراء على سلطانهم كارثي السلوك والسياسات، خاصة مع بطشه ببعض من يعارضونه منهم، فانتفض عليه أمراء الشام، وأرسلوا له إنذارًا أخيرًا، فأشار عليه الأمير أرغون بإرسال حملة للشام للتصدي لهم.. وقبل أن يفيق من صدمة انتفاضة الشام؛ فوجئ ببعض أمراء مصر يخرجون عليه.. فأشار عليه أرغون بالمواجهة أيضًا..

تواجه الفريقان خارج القاهرة، وسرعان ما بدأ أتباع الكامل شعبان يتسربون من حوله، نظر حوله غير مصدق.. حتى من كانوا يتملقونه ويشاركونه شرب الراح والعربدة في الليالي الملاح باعوه لعدوه.. حتى صديقه وصنيعته الأمير غرلو تركه وانضم للمنقلبين عليه..

لم يبقَ معه سوى زوج أمه أرغون العلائي، الذي أعيته الحيل في إصلاحه.. هو وحده رفض تسليمه، قاتل عنه حتى أصيب.. أدرك الكامل أنه إن أُدرِك قُتِل، أضاف لكونه فاسدًا منحلًا صفة جديدة هي كونه نذلًا، فقد ترك مشيره المخلص مصابًا وفر من أرض المعركة.. تذكّر وهو يتشبث بعنان فرسه يوم ركوبه لموكب السلطنة، عندما جفل تحته الفرس وكاد أن يوقعه، فتحدثت العامة بأنه لن يعمّر في السلطنة..

ولأن حياة يعيّر بها صاحبها كحياته لا تنقصها سوى نهاية لا تقل عارًا، فإنه عند سقوط القلعة والتفتيش عنه؛ وُجِدَ سلطان البرين وملك البحرين الملك الكامل شعبان، سلطان المسلمين، مختبئًا عند أمه، وعندما حوصر عندها هرب، وكأنما خشي أن يموت قبل أن يرتكب بعض

موبقاته، فقد حاول أثناء هربه قتل أخويه خشية تولي أحدهما الحكم بعده، ولكنه فشل واعتُقِل في إحدى قاعات القلعة.. ثم أرسل له الأمراء من قتله ودفنه، لينهي تلك القصة المشينة في تاريخ السلاطين..

ـ المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون.. سفاح الأمراء (١٣٤٦م ـ ١٣٤٧):

توقف الرَكب الصغير، فهبط الأمير بيبغا أروس عن فرسه، وجذب سجينه المقيّد المُلقى على صهوة جواد كجوال ممتلئ، وألقاه أرضًا.. رفع الغطاء عن رأسه فبدا وجه المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون، وقد كُمِّم فمه..

«هيا.. اعمل شغلك»، قالها الأمير لرفيقهما الثالث وهو أحد الجند، فأخرج هذا الأخير سكينه وجذب حاجي ذا الستة عشر عامًا من شعره، ساحلًا إياه منه على الأرض الصخرية القاسية.. لم يذبحه فورًا، وإنما أخذ يمس عنق الفتى بالسكين، وقد بدا عليه الاستمتاع بعلامات العجز في عيني ضحيته.. لاحظ بيبغا ذلك، فاقترب من الجندي سائلًا إياه ببساطة: «أيهم كان أستاذك؟»

نظرة التشفي في عيني الرجل استحالت لحقد وهو يرمق المظفر حاجي، قائلًا: «يلبغا اليحياوي»، أطلق بيبغا صفير تعجب، وانحنى نحو السجين قائلًا: «يا الله! من بين كل من قتلتهم من الأمراء، وقع نصيبك عند الذبح

في مملوك لأكثر أمير أثار قتلك له غضب المماليك عليك»، جلس أرضًا بجوار حاجي، الذي حاول تصويب نظرة تحدٍ له.. مال نحوه وقال: «كيف وصلت لهذا؟ ما الذي كان ينقصك؟ سلطان شاب.. قوة وعنفوان، رجال يعرفون الجميل لأبيك الناصر رحمه الله.. لِمَ لم تستغل ذلك لصالحك؟»

لا يدري هل كان المظفر حاجي يرتعد بردًا أم خوفًا.. لكن هذا الأخير كان يستمع في عجز لبيبغا أروس، بينما تمرق في رأسه مشاهد متفرقة..

الأمراء يخرجونه من جناحه بالقلعة، يجلسونه على الكرسي ويبوسون الأرض له.. الأمير أرقطاي يُعيَّن نائبًا له.. تجري مراسم ترقية ثمانية عشر أميرًا.. يلفت نظره أحدهم، له ملامح جميلة تأسر القلب... طنيرق اسمه.. يعينه أمير مئة دفعة واحدة.. ويصبح من خاصكيته (أمراؤه المقربون) في طريقه عائدًا للقلعة يفكر، مازال شابًا على تحمل أعباء الحكم الثقيلة على النفس، عليه إذن ألا يُحرَم ملذات الشباب..

يرسل للعوّادة اتفاق، التي كان قد امتلكها السلطان الراحل إسماعيل، وورثها المقتول شعبان، ثم انتقلت له بعد سلطنته.. كان قد اضطر في أول أيام سلطنته لمصادرة أموالها وطردها من القلعة، ثم عاد ليحضرها، بل وتزوجها سرًا، بعد أيام من عقده قرانه على ابنة أحد الأمراء.. بقي ينفق أيامه مع جاريته، بين فراش عشق وكأس خمر ووتر عود، ولم يقف لهوه عند جناح الحريم، بل تعداه لما هو أفحش، فقد أحضر الحرافيش من محترفي المصارعة إلى داخل القلعة، وبقي يقضي اليوم في مشاهدتهم، بل وكان

أحيانًا يتجرد من ثيابه ويرتدي سراويلهم القصيرة ويشاركهم اللعب، ثم بدا له أن يضيف لأسباب لهوه اللعب بالحمام، فبنى بالقلعة بيوتًا باهظة الثمن من خشب الصندل المطعم بالذهب.. وهكذا بقي يخوض في لهوه وعبثه، حتى بدأ الأمراء يواجهونه باعتراضهم على سلوكه..

ولأن لوم الأمراء كان شديدًا، فقد اضطر مرة أخرى لإبعاد اتفاق.. ومفارقة حرافيشه، وكسر بيوت الحمام، بل وذبحه.. ولكنه بدأ يبحث عمن يتقرب إليه من الأمراء فلم يجد إلا شجاع الدين غرلو، صاحب الولاء المطاطي.. وغرلو عنكبوت سام، أحاط المظفر حاجي بخيوطه ليضرب به الأمراء ويصفو له الجو.. بقي يوسوس للسلطان بأن عليه أن يكون أكثر حزمًا مع الأمراء، بل ودموية لو لزم الأمر.. فهو السلطان، وهم عبيده، وما للعبد إذا تنمّر إلا السوط أو السيف..

كانت البداية جريمة قتل مما يمني مرتكبها نفسه أنها حالة استثنائية للضرورة، ثم ينصلح بعدها حاله.. قام باستدراج الأميران أقسنقر وملكتمر للقلعة، وباغتهما بالقتل.. في البدء كان الأمر ثقيلًا على نفسه، إلا أنه في نفس الوقت أورثه شعورًا بالقوة.. تشجع وقبض على بعض الأمراء الآخرين، «لا قتل هذه المرة يا غرلو»، هكذا قال.. «أمر سلطان المسلمين»، هكذا ردّ غرلو وهو يبتسم في باطنه.. ولكن.. الضرورات يا مولاي.. والأمير يلبغا اليحياوي، أمير الشام، يخامر عليك منذ زمن.. وأمراء الشام يسبحون في تياره.. ما العمل إذن يا غرلو؟ بسيطة..

يتلقى الأمير يلبغا اليحياوي رسالة من السلطان تأمره بالعودة للقاهرة ليعينه رأس مشورته.. ينفذ يلبغا الأمر، ويتحرك نحو مصر على أمل أن يكون بيده إصلاح الأمور دون دماء، وفي الطريق يفاجأ يلبغا بكمين ينتظره، وقبل أن يسارع بالفرار يكون السيف قد سبقه إلى روحه..

ليس الأمر ـ القتل ـ بهذه الصعوبة، أو لم يعد كذلك، فالسلطان يتشجع ويأمر بقتل الأمراء الذين كان قد اعتقلهم.. ويبلغ عدد من قتل من أمراء أبيه نحو اثني عشر أميرًا من المُقَدَّمين.. كل هذا بمساعدة غرلو.. ثم ينتقل هذا الأخير للمرحلة الثانية في خطته، فيوقع بين السلطان ونائبه أرقطاي، وينجح في إقناع سلطانه بتعيينه «أمير سلاح» (المسئول عن الأسلحة السلطانية)، ولأن غرلو جركسي فإنه يقرب بني جنسه، ليضمن لنفسه السيطرة من خلال الولاء للعِرق.. ويظن المملوك أنه قد حاز الدنيا، إلا أن مماليك السلطان ـ وعلى رأسهم طنيرق سالف الذكر، ومملوك آخر اسمه ألجيبغا ـ الذين أغضبهم إقصاؤه لهم وتقريبه غرلو، يدبرون للإيقاع بينه والسلطان، ويتهمونه في ولائه، ثم يباغتونه باعتقاله ثم قتله بحجة الشك في مخامرته على السلطان، ويعرف هذا الأخير ويشتعل غضبًا، لكنه يكتم غضبه في نفسه متربصًا بهم..

ويحن السلطان لأيام لهوه وعبثه، فيستغل خروج الأمراء للصيد في مختلف نواحي مصر، فيعيد سيرة الحمام والمصارعة ومصاحبة الحرافيش، بل ولعب القمار، ويضم لحريمه هذه المرة جارية اسمها كيدا، فأخذ يغدق عليها من الأموال، بل وبلغ به العبث حد أن كان يقذف الذهب

والجواهر في الهواء، ويضحك وهو يتسلى بمشاهدة الخدم والعبيد يتسابقون لنيلها..

ويعود الأمراء الكبار من الصيد ليفاجأوا بالكارثة، فيعنفون السلطان، الذي يدرك أنهم قد عرفوا بسلوكه من أمرائه الخاصكية، خاصة طنيرق وألجيبغا، فيقرر التخلص منهم، إلا أنهم يعرفون بتدبيره، فيتصلون بالأمراء المشتعلين غضبًا على السلطان، ويتفقون جميعًا على خلعه..

* * *

«كان عليك أن تدرك أن المواجهة الأخيرة لن تكون لك بل عليك.. قل لي من كان معك؟ أمراء أبيك ساخطون عليك لقتلك أقرانهم، ولانغماسك في المساخر، خاصكيتك تبغضك لتربصك بها، أمراء الشام لهم زمن قد خلعوا طاعتك.. كان عليك أن ترى ذلك القادم نحوك، من قبل حتى أن يتسرب أعوانك عنك في المعركة الأخيرة وينضموا لخصومك، حتى وقعت في الأسر»

قام عنه وأشار للجندي المتململ بالانتظار لنيل ثأره، أولاهما ظهره مداعبًا عنق جواده، وابتسم بارتياح وهو يسمع همهمة مستميتة، ثم صوت النصل الحاد وهو يمزق العنق ويشقه، كاسرًا عظام الرقبة لمن كان بالأمس سلطان البلاد..

* * *

ـ الناصر حسن.. السلطان المتمرد (١٣٤٧م ـ ١٣٥١م) ثم (١٣٥٤م ـ ١٣٦١م):

هل كانوا يتوقعون أن ذلك الطفل صاحب السنوات التسع سيكون صداعًا لرؤوسهم؟

من البداية اختاروه طفلًا ليكون قطعة صلصال طيّعة أو دمية سهلة التوجيه.. قرروا منعًا للتصارع أن يشكّلوا مجلسًا للمشورة يشرف عليه ـ أو بمعنى أدق يحجر عليه ـ حتى يبلغ سن الرشد.. بقي أرقطاي ـ نائب السلطان السابق ـ في منصبه، ثم حل محله بيبغا أروس سالف الذكر..

من البداية فرضوا عليه حصارًا شديدًا، فكانوا يراقبون كل تحركاته ونفقاته، ولكن باغتهم الخطر من حيث لا يحتسبون.. هذه المرة من الخارج..

بدأ الأمر بأنباء عن مرض ينتشر في الدول المجاورة.. يضعف المرء وتضطرب أعضاؤه، ثم يصرخ ويقذف الدم من فمه، وفورًا يموت.. وقبل أن يستوثقوا من صحة الخبر؛ وجّه المرض ضربته لمصر، لتنضم للدول ضحية ذلك الوباء الشهير، المعروف تاريخيًا بـ«الموت الأسود»..

بدأ الأمر في الإسكندرية، ثم البحيرة والدلتا، ثم وصل إلى القاهرة، واكتسح أمامه مدن الوجه القبلي، وصولًا لأسوان التي كانت الأقل تضررًا منه.. الفوضى والرعب ضربا بأطنابهما، الناس محاصرون بالموت من كل اتجاه، القضاة يشكون من فوضى في المواريث، بسبب أن كلًا

من المُورِّث والوريث، ووريث الوريث، ووريث وريث الوريث، وما بعدهم، قد يفنون في أسبوع واحد، فلا يجد المال من يرثه.. الجثث تتراكم في الشوارع بغير دفن، فقد مات المُغسِّلون وحاملو النعوش واللحّادون.. يسارع الأمراء لفتح أماكن للتغسيل والتكفين ودفن الموتى.. يضج الشيوخ بالدعاء في صلوات انعدمت صفوفها لموت المصلين... الجنازة تخرج وراء الميت، ثم تعود وقد مات بعض المشيعين.. مسجد في القاهرة يصلي على سبعمئة ميت دفعة واحدة.. الشوارع تخلو.. القاهرة والفسطاط والجيزة والإسكندرية ومدن مصر تتحول لمدن أشباح..

عام كامل ثقيل تفقد مصر خلاله ثلث سكانها في هذا الكابوس..

ولا تكاد القاهرة تفيق من انقشاع الوباء عنها حتى تشتعل من جديد صراعات الأمراء في مجلس المشورة، ويستغل الناصر حسن خلافات الأمراء وسفر كبارهم للصيد؛ فيعلن نفسه راشدًا بشكل رسمي، ويعزل بعضهم ويعتقل البعض الآخر، متحالفًا مع بضعة أمراء من الطامعين في السلطة، ثم يقرر التمرد على هؤلاء، فيدبر مع خاصكيته أن يدّعي المرض، ويعتقلهم أثناء زيارتهم له، فيدرك حلفاؤه الخدعة، ويحاصرونه، ثم يقومون جميعًا بخلعه واعتقاله، وتولية أخيه صالح، ولكنهم لا يقتلون حسن، بل يكتفون بتحديد إقامته..

وكما دعت «توازنات القوى» الأمراء لخلع حسن وحبسه وتولية صالح السلطنة، دعتهم سنة ١٣٥٤م لخلع صالح وحبسه، وإعادة تولية حسن،

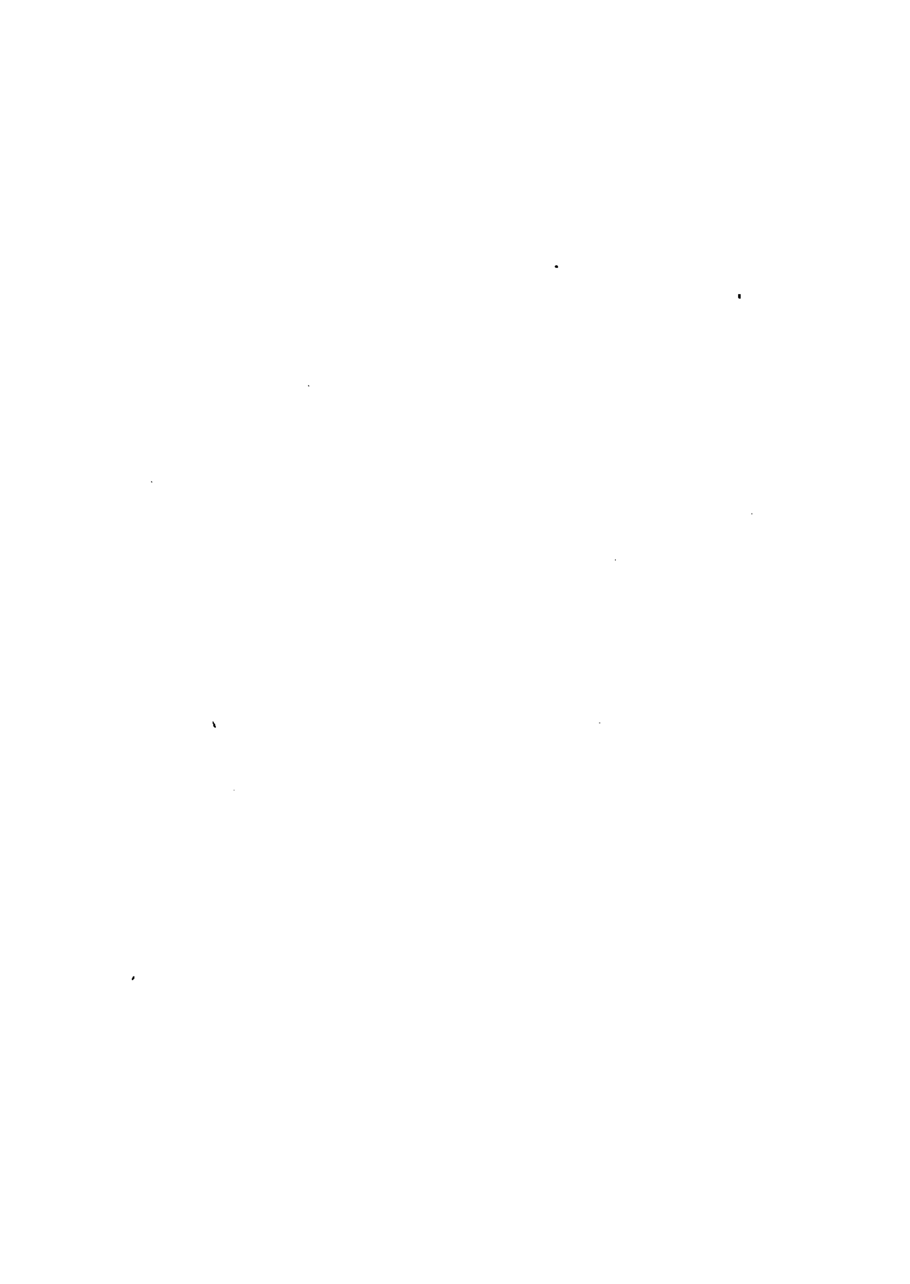
الذي شجعهم اعتزاله السياسة وقضاءه وقته في العبادة على إعادته للعرش، وأصبح الأمير شيخو العمري ـ أتابك العسكر ـ مدبرًا للمملكة وحاجرًا على السلطان.. ولكن لعب القدر دوره، فبينما شيخو في مجلسه؛ هاجمه أحد المماليك بسيفه وأحدث به إصابات بالغة، أدت لمقتله بعد أيام متأثرًا بجراحه.. وفورًا اتجهت أصابع الاتهام للسلطان، الذي نفى عن نفسه التهمة، بل وأشهد القوم على الجندي الذي اعترف أنه هاجم شيخو لضغينة شخصية تتعلق براتبه ورتبته..

حل الأمير صرغتمش محل شيخو كمدبر للمملكة، ولكن الناصر حسن كان قد قرر تغيير سياسته للتمرد على الحاجرين عليه، فبدأ يوجه نظره إلى طبقة «أولاد الناس»، وهم جيل أبناء المماليك الذين وُلِدوا بعد تحرر آبائهم، ولم يعيشوا حياة المملوك.. بدأ في تقريبهم منه وتعيينهم في الرتب العسكرية ليستقوي بهم، حيث إنهم يشتركون معه في كونهم لم يمسهم الرق.. ثم وجه ضربته، فدبر اعتقال صرغتمش وإرساله لسجن الإسكندرية، وانفرد الناصر حسن بالحكم.. وقام فورًا بترقية «أولاد الناس» للمناصب العليا، كذلك قام بترقية مماليكه هو، وعلى رأسهم الأمير يلبغا العمري.. لكن هذا الأخير لم يقنع بالدرجة التي وضعه فيها السلطان، وكان فيما يبدو يأنف من مساواته كمملوك تدرج في سلك الفرسان بطبقة أولاد الناس، فقرر التمرد عليه، وأحس السلطان بذلك، فقرر استدراجه واعتقاله.. لم يكن الناصر يعرف أن لخصمه عيونًا تراقبه وآذان تتنصت عليه.. فتحت جنح الليل خرجت إحدى محظيات الناصر حسن، وتوجهت سرًا لبيت يلبغا العمري وأخبرته بما يدبر له..

هنا قرر يلبغا أن يسبق عدوه، فدبر انقلابًا ضده، وكالعادة تواجه الخصمان ومع كل منهما رجاله، ورجحت كفة الأمير يلبغا، فقبض على السلطان..

وهنا يتوقف المراقب للتاريخ المملوكي ذاهلًا أمام واقعة شاذة، هي أن يقتل المملوك أستاذه، فيلبغا فور قبضه الناصر حسن سارع إلى قتله دون حتى أن يشاور أحدًا.. واضعًا نهاية مأسوية لست سنوات نعمت فيها السلطنة ـ رغم المِحَن ـ بسلطان عادل تقي رفيق بالرعية، له همة عالية في البناء والتعمير والإصلاح، استطاع وحده أن يعيد لكرسي السلطنة هيبته ـ ولو مؤقتًا ـ وأن يخرج السلطان من كونه مجرد ألعوبة للأمراء، ولكن شيطان الاستماتة على السلطة سلط عليه يلبغا، الذي هوى بسيفه على عنقه فأزاله، وأزال عهدًا كان يمكن أن يكون إحياءً لعهود السلاطين الأوائل العظام، ولم يبقَ من عهده هذا سوى ذلك المسجد المعروف بمسجد السلطان حسن..

بالطبع امتعض المماليك من هذا الفعل الخسيس، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام أمر واقع، فكظموا غيظهم ـ إلى حين ـ وسارعوا لتولية العرش لواحد من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون، وهو المنصور محمد بن السلطان القتيل المظفر حاجي.. لتنتقل لعنة الدم للجيل التالي من آل قلاوون..



(XII)

أبناء الناصر محمد بن قلاوون.. المنحوس والسكير

- الأشرف شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون (١٣٦٣م - ١٣٧٧م)

الإسكندرية - أكتوبر ١٣٦٥م

كتم ذلك الشيخ أنفاسه وهو ينكمش في مخبئه، مسترقًا النظر برعب لبعض فرسان الفرنجة، وهم يعبثون بجثة فتى حاول مهاجمتهم بسكين، فتناوشته سيوفهم ليهوي جثة ممزقة.. تمنى لو فقد حاسة الشم كيلا تصل إليه رائحة هي مزيج من الحجارة المحترقة والدم المشوي على جثث أصحابه، حملتها إليه الرياح الآتية من المدينة المدمرة.. نظر نحو الأفق لأعمدة الدخان وألسنة اللهب، متمتمًا لنفسه بغير تصديق: «الإسكندرية تحترق!»

فمنذ أيام قليلة داهمت المدينة حملة من أكثر من ١٥٠ سفينة حربية، على متنها فرسان من مختلف أنحاء أوروبا، بقيادة بطرس لويزنيان ملك قبرص، فاجتاحوا القوات الهزيلة التي تصدت للدفاع عن المدينة، ودهموا بيوتها وشوارعها ومساجدها وحتى كنائسها، ممارسين السلب والنهب والاغتصاب والقتل في أرجائها...

يشير الجميع بأصابع الاتهام بالحماقة والرعونة لقائد الحامية المملوكية، الذي أصر على التصدي للغزاة خارج أسوار المدينة، رغم ارتفاع أصوات العقلاء الذين نصحوه بالتحصن خلف الأسوار ومراسلة القاهرة طلبًا للمدد، لكنه ركب رأسه وأخذ يردد كلامًا محفوظًا عن الجهاد وملاقاة العدو، والجنة التي تحت ظلال السيوف، فلم ينفعه الحماس الغبي فيما كان يقتضي التخطيط الحكيم.. ودفع الأهالي الثمن من دمائهم وهم يستغيثون بالله ومن بعده بالسلطان..

والسلطان.. أين السلطان؟

السلطان صبي في الحادية عشرة من عمره، محجور عليه من مدبر المملكة يلبغا العمري، الذي جاء به ووضعه على العرش بعد أن خلع المنصور محمد بن المظفر حاجي، الذي تسلطن لفترة قصيرة بعد قتل يبلغا للسلطان حسن..

ويلبغا هذا هو من المسئولين عن كارثة الإسكندرية، فقد بلغته أخبار الحملة القبرصية قبل وصولها للمدينة، لكنه تهاون في أمرها، وانهمك في صراعاته مع الأمراء وتدابيره للحجر على السلطان..

أخيرًا قرر يلبغا التعامل مع الكارثة بتجهيز حملة لإنقاذ المدينة، لكن الغزاة فروا قبل وصولها، لاختلاف قياداتهم، وإدراكهم أنهم لن يستطيعوا التصدي للقوة المملوكية القادمة من القاهرة.. فرحلوا عن الإسكندرية بعد أن كبّدوا أهلها عشرين ألف شهيد، كما تقول بعض المصادر..

حاول يلبغا أن يحفظ ماء وجهه، فبدأ في الإعداد لحملة انتقامية، وأمر ببناء السفن لها، ولكن شاء القدر أن يشهد عهد الأشرف شعبان موجة النحس التالية بقيام فتنة بين مماليك يلبغا، وتمردهم عليه، ومحاصرتهم له في جزيرة أروى (الزمالك حاليا) في نيل القاهرة، فشك يلبغا في أن للسلطان علاقة بذلك، فأعلن خلعه وتولية أخيه أنوك، لكنه فشل في تنفيذ ذلك، فاضطر للهرب إلى دار له بمنطقة الكبش (قلعة الكبش حاليًا)، وهناك داهمه مماليكه وقتلوه، ليلقى نفس مصير الراحل السلطان حسن، حين قتله وهو مملوكه..

بعد قتل يلبغا؛ دخل العامة في الفتنة، فاستغلها بعضهم وقاموا بمهاجمة بيوت بعض الأمراء ونهبها، بحجة أنهم كانوا من أنصار يلبغا، وأثار مماليك هذا الأخير المشاكل، وقد أغراهم انتصارهم على سيدهم أن يخلعوا السلطان، فصار الانفلات الأمني هو سيد الموقف، حتى تدخل السلطان بشخصه واستعان بمماليكه، وأجبروا المخرّبين على الكف عن فسادهم، وأقروا الأمن في القاهرة.. واستقل السلطان بالحكم خارجًا عن الوصاية، وأصبح زوج أمه الأمير الجاي اليوسفي أتابكًا للعسكر..

ولا يكاد السلطان يلتقط أنفاسه من النوازل والكوارث، حتى تندلع الفتنة من جديد، فبعد وفاة أمه نشب خلاف بينه وبين زوجها الجاي اليوسفي على ميراثها، تطور لأن حاول الجاي خلع السلطان، لكنه هُزم وغرق في النيل أثناء محاولته الفرار..

وكأن القدر أراد تخفيف وطأة المحن عن السلطان، فأخيرًا بلغه خبر مفرح، هو تمكن جيشه من إسقاط دولة أعدائه الأرمن في بلاد الأناضول، وضمها للسلطنة.. ولكن المصائب لم تشأ تركه ينعم بانتصاره، فباغتت مصر مجاعة طاحنة تزامنت مع هجمة ضارية للوباء، وجاء ارتفاع الأسعار ليضفي على الصورة مزيدًا من القتامة...

بل ومرض السلطان نفسه حتى أوشك على الموت.. ثم أخيرًا تعافى.. وقرر الخروج للحج..

وهنا عاش السلطان الأشرف شعبان محنته الأخيرة، فعند وصول ركبه المتجه للحجاز إلى العقبة، تذرع الأمراء المصاحبون له بتأخره في توزيع طعام خيولهم، وتأخير نفقتهم عليهم، فثاروا ورفعوا السلاح عليه، وحاولوا قتله، ولم يفلت منهم إلا بعناء.. وفر إلى القاهرة..

ولكن في القاهرة كانت تنتظره مفاجأة مزعجة، فقد تآمر الأمراء، ممن لم يسافروا معه، وقرروا خلعه، بل وأعلنوا أنه مات، وأنهم ولّوا مكانه ابنه علي، الطفل ذا السبعة أعوام، فاضطر شعبان حين وصوله القاهرة للاختباء في بعض بيوتها.. ولكن مرة أخرى يخونه حظه، فيستدل المتآمرون عليه ويعتقلونه..

وفي محبسه يذيقونه العذاب ليعترف بمخابئ ثرواته، حتى يقر لهم بها.. هنا يظهر الوتر الرفيع الحاد، ويلتف على عنقه، فيخمد أنفاسه، وينهي أربعة عشر عامًا من المعاناة مع الكوارث والمصائب.. ويموت السلطان المنحوس في سن الرابعة والعشرين من عمره..

وبعدها بأيام.. يعثر بعض خدم القلعة قرب مشهد السيدة نفيسة على قفة تفوح منها رائحة العفن، فيفتحونها ليجدوا بها جثة شاب عليه آثار التعذيب، وقد رسم وتر الخنق على عنقه خطا عميقا، وانكسر ظهره عند محاولة حشر جثته في القفة، فيخرجون الجثمان وينظرون لوجهه، ليتعرفوا فيه سلطانهم المقتول... فيدفنونه..

ـ الصالح حاجي... السلطان السكير (١٣٨١م ـ ١٣٨٢م) و(١٣٨٩م ـ ١٣٩٠م):

في القلعة، يبوس الأمراء الأرض للسلطان الطفل المنصور علي بن السلطان المقتول شعبان، ليقضي الفترة بين عامي ١٣٧٧م و١٣٨١م ألعوبة في يد الأمراء المتصارعين، ثم يمرض ويموت دون سن الثانية عشرة، ليعقبه أخوه الصالح حاجي، الذي يصغره بثلاثة أعوام..

في هذا الوقت، كان نجم الأمير برقوق ـ أحد الأمراء الجراكسة ـ يلمع، وكان هذا الأخير داهية، يجيد ضرب خصومه بعضهم ببعض حتى يفنيهم، إلى أن ينفرد بآخرهم فيسهل الإيقاع به.. وهكذا بقي

برقوق يتقرب للعامة تارة، ويتآمر على الأمراء تارات، حتى خلا له الجو، فأعلن خلع السلطان الطفل وتوليه هو السلطنة، بحجة أن الحكم يعوزه رجل بالغ ناضج... وبالفعل يتسلطن برقوق منهيًا عصر المماليك الترك ـ العصر المملوكي الأول ـ ومفتتحًا عصر المماليك الجراكسة ـ العصر المملوكي الثاني.

ويستمر برقوق في الحكم لستة أعوام، ثم يتعرض حكمه لهزة عنيفة تطيح به، فيفر من القلعة، ثم يُقبض عليه ويُحبس بالشام، ويعيد المتآمرون السلطان المخلوع حاجي للعرش ويحلفون له... وكالعادة يضرب الأمراء الأوصياء على السلطان بعضهم بعضًا، حتى يتمكن أحدهم، وهو الأمير منطاش، من تسيد الموقف والقبض على السلطة، ويرسل أمرًا لحاكم الكرك ـ محبس برقوق ـ بقتله كيلا يحاول العودة للحكم، لكن أهل الكرك يقتلون الرسول، ويحرر حاكمها برقوق، الذي يتوافد عليه مؤيدوه من الذين ضجّوا من تردي الأحوال في المملكة وكثرة فتن الأمراء.. ويزحف برقوق بجيشه ويعيد انتزاع الحكم.. وتبدأ سلطنته الثانية..

لكن برقوق، على خلاف المعتاد مع السلاطين المخلوعين، لا يقتل السلطان المخلوع حاجي، بل يسكنه معززًا مكرمًا بدار بالقلعة، ويجعله صديقًا ونديمًا له، ويجزل عليه العطاء، بل ويتحمل من حاجي نوبات سكره الشديد، وتطاوله المتكرر عليه خلالها..

ولكن حاجي يتحول لكارثة على من حوله، فقد أصبح سكيرًا من

النوع العنيف، الذي ما إن يسكر حتى ينتابه جنون، فينهال على من حوله ضربًا.. وتتكرر شكوى خدمه وجواريه أنه يضربهم بوحشية، ويتجاوز الأمر الحد، لدرجة أن السلطان برقوق كان يصله صوت صريخ الجواري وهن يضربن، فكان يرسل للمخلوع من يتلطف معه ويبلغه شفاعة السلطان في المضروب ليكف عنه، فيضطر حاجي لأن يأمر عند ضربه جواريه بأن تعزف الموسيقى بأصوات عالية، كيلا يصل صوت الصراخ للسلطان، فيعرف السلطان ذلك، حتى يعتاد عند سماع الموسيقى العالية أن يرسل من جديد يستعطف حاجي على ضحيته..

وكأن القدر يأبى إلا أن تنتهي سلالة آل قلاوون الحاكمة بمأساوية، فيصاب حاجي بالشلل ثم يموت يومًا، وتتناثر الشائعات والشبهات حول موته في الأربعينات من عمره، وتتناقل الألسنة والآذان أن بعض جواريه دسسن له السم في شرابه، ليسترحن من جنونه ووحشيته في نوبات سكره الكثيرة.. وسرعان ما تسكت الشائعات في اتفاق ضمني على طي هذه الصفحة المأسوية، سواء صفحة حاجي، أو صفحة أبناء الناصر محمد بن قلاوون..

ويسلم عصر مماليك الترك الراية لعصر مماليك الجركس، لكن خيط الدم يستمر غير عابئ بهذه الفروق العرقية..



(XIII)

الناصر فرج بن برقوق..
عهد الدم!

نحن الآن في العام ١٣٩٩م

مات السلطان الظاهر برقوق، فحمل الأمراء ابنه الناصر فرج إلى العرش وهو ابن العاشرة، وأتموا له المراسم، من أيمان مغلظة بالولاء وتكليف من الخليفة وانحناء وتقبيل للأرض بين يديه، إلخ.. ما علينا من هذا المشهد المكرر، والمكررة معه لعبة «مات السلطان الكبير.. هاتوا ابنه الصغير وسلطنوه، ليصبح ألعوبة لنا، وحل وسط يمنع تصارعنا على العرش.. وإذا جاء يوم وأزاح أحدنا الآخر وركب السلطان، فحلال عليه ركوبته.. أو حرام.. لا تفرق كثيرًا فالنتيجة واحدة: سلطان طفل وأمير متحكم»..

المهم.. حلفوا له على الولاء، ثم خرجوا من عنده وقد دبر بعضهم على بعض سفك الدماء..

وكما أن مشهد السلطنة والحلفان كان مكررًا، فقد تكرر نفس مشهد الصراع والصدام والمخامرات والتمردات بين التحزبات والتكلات.. هذا حزب الأتابك أيتمش البجاسي ـ الوصي على السلطان ـ يتبادل الضربات ـ تحت الحزام وفوقه ـ مع حزب الدوادار يشبك الشعباني، ومعه الأمراء الخاصكية (المقربون إلى السلطان). وهذا الأمَير تنم الحسني ـ نائب دمشق ـ يزوم وينخر، ويبدي تبرمه من أن السلطان مجرد طفل محجور عليه، وأن الأمراء هم المتحكمون.. وهؤلاء الأمراء الخاصكية يوقعون بينه وبين تنم الحسني، الذي يضع تحت جناحه كل أمراء الشام.. والكل في النهاية ينحنون للحضرة السلطانية، ويُقبّلون الأعتاب الشريفة، وما في القلب في القلب.. وأخيرًا يتمكن الخاصكية من أذن السلطان وقراره، فيستغلون اقترابه من سن الثانية عشرة، ويقنعونه أن يطلب من قضاة الشرع الشريف رفع الوصاية عنه باعتباره قد أصبح راشدًا. ولأن قضاة عصره، فيما يبدو، كانوا على شيء مما يمكن أن نصفه تأدبًا بـ«المرونة»؛ فقد وافقوا على رفع الوصاية عنه وتفرده بالحكم.. هنا يجد الأتابك أيتمش أن البساط قد سُحِبَ بغتة من تحت قدميه.. فيتنمّر ويحشد حزبه.. وعلى سبيل مزيد من التكرار تقع المواجهة المسلحة بين أيتمش وأعوانه والأمراء الخاصكية، الذين ينتصرون ويجبرون خصمهم على الهرب للشام، وسط استغلال الغاغة والحرافيش لحالة التفكك،

وقيامهم بمهاجمة سجون القاهرة وإطلاق المحبوسين، ومهاجمة بيوت الأمراء الفارين ونهبها.. ويصل المنهزمون لتنم الحسني، الذي يضمهم لجبهته ضد الخاصكية..

ولأن المسألة قد أصبحت متعلقة بهيبة السلطان الذي أصبح راشدًا، ولا يريد كلمة من هنا أو من هنا عن سيطرته على الأمور؛ فقد كان من الطبيعي أن يجرد حملة جرارة يخرج على رأسها، ويجتاح الشام لتأديب العصاة.. وهناك كانت الدائرة على حزب الأميرين تنم الحسني وأيتمش البجاسي، اللذين أُسرا ومعهما كبار الأمراء من حلفائهما.. ولأن الهيبة السلطانية الجليلة كادت أن تهتز بفعل هؤلاء الأراذل، فقد رأت حكمة السلطان أن يثبت حزمه الرجولي، فأدار مذبحة رهيبة بحق أسراه من الأمراء، وأضاف إليهم بعض أمراء أبيه، هذا طبعًا مع مصادرة أموالهم.. ثم ولّى الأمراء المنحازين له مناصب من قتلهم.. وعاد للقاهرة وهو يحس أنه قد فعل اللازم لتوطيد أركان حكمه، وتأكيد قدرته على التعامل بصرامة مع من يستهين به..

هل عليّ أن أُذكّر القارئ أننا نتحدث عن طفل في الثانية عشرة من عمره؟ حسنًا.. ها قد ذكّرتك..

ولأن تصاريف القدر أحيانًا ما تبعث على التأمل، فقد تعرضت السلطنة لخطرين متتاليين، الأول كان غزوًا مغوليًا مدمرًا للشام بقيادة تيمور لنك، والآخر كان مجاعة مريعة داهمت مصر، حتى اضطر بعض أهل القرى لبيع

أبنائهم بثمن بخس لعدم قدرتهم على إطعامهم! طبعًا نظر الجميع نحو السلطان القوي المنتصر، باعتبار أنه الرجل المتمكن القادر على التعامل مع الأزمة.. فماذا فعل؟

لا شيء.. فمثل تلك المسائل التي تحتاج إلى حلول لا تعتمد على القمع والقتل لا تدخل في نطاق المهارات التي يجيدها السلطان.. ولولا تصرف أمراء الشام بما ينبغي لإنقاذ دمشق، التي أباد المغول أهلها ودمروها، وقرار تيمور لنك تبريد جبهة الشام والأناضول ليتفرغ لحروبه في الصين؛ لضاعت الشام للأبد..

هذا فضلًا عن أنه ـ السلطان فرج ـ كان مشغولًا في مسائل يراها أهم، فقد ارتأت حكمته أن يضفي مزيدًا من الحماية على ملكه بأن يزوّج أخواته من الأمراء الأقوياء، لضمان ولائهم.. كما عادت من جديد صراعات الأمراء، ولكن بطريقة أكثر فوضوية وعبثية وجنونًا من ذي قبل، فهذا اليوم يضرب ذاك، ثم في اليوم التالي يحالفه، ثم يتركه ويتحالف مع غيره ويضربانه معًا، ثم ينفض الحلف ويتحالف الخصمان، ويصطدمان بمن كان حليفًا لأحدهما على الآخر.. وهكذا.. والسلطان غارق في لهوه وسكره، فهو على ما يبدو قد قرر ترك الأمراء يذبح بعضهم بعضًا، ثم في النهاية النتيجة واحدة: سيصعد أحدهم إلى القلعة ويُقبّل الأرض للسلطان، الذي سينعم عليه بوظيفة الأتابك، التي صارت منذ عهد السلطان الراحل برقوق أعلى رتبة من نيابة السلطنة ومن الوزارة.. فليتركهم إذن للهوهم الدامي، وليستمتع هو بجلسات السُكر والعربدة مع رفاقه.. لكن القدر يدخر له

صفعة موجعة، فصراعات أمراء الشام قد امتدت لتتصل بصراعات أمراء القاهرة، فيحتشد المتمردون في دمشق ويزحفون نحو مصر و، قد انتووا خلع السلطان.. ويفاجأ السلطان أن المتمردين قد دخلوا حدود مصر، وأنهم يتجهون جديًا للقاهرة لخلعه، فيحشد جيشه ويصطدم بهم قرب مدينة الزقازيق، فينهزم وينسحب، وتضيق الدنيا في وجهه وهو يرى السلطنة ـ وربما حياته نفسها ـ تضيع من يديه، ولكن انشقاقًا في صفوف المتمردين يدفعهم للانسحاب لدمشق مرة أخرى.. ويشمخ السلطان بأنفه معلنًا انتصاره، ويزين إعلانه هذا ببعض الإنعامات على الموالين له، وبعض الاعتقالات بحق معارضيه، بينما هو يعرف أنه في حقيقة الأمر لم ينتصر، وأن سيف المشاعلي أو وتر الخنق كان قاب قوسين أو أدنى من عنقه، لولا تدابير القدر، ويعرف ـ وهذا الأدهى ـ أن المتمردين قبل انسحابهم قد استولوا على الكثير من أمواله وأسلحته..

والقارئ في علم النفس، ولو قليلًا، يعرف أن من في مثل «حالة» السلطان فرج بن برقوق لابد أنه منتقل للمستوى الأعلى، وهو «البارانويا».. وبالفعل.. تنتاب السلطان الشاب ـ الذي أصبح الآن في السابعة عشرة من عمره ـ حالات من الارتياب فيمن حوله، بالذات في المماليك السلطانية، الذين يفترض أنهم درعه الواقي، والسبب كان غريبًا: أنهم كانوا من المنتمين للعرق الجركسي، بينما هو يفضل الذين ينتمون للعرق الرومي (اليوناني).. رغم أنه هو نفسه جركسي الأب، ولكنه فيما يبدو كان متعلقًا بأمه اليونانية «شيرين».. واندلعت فتنة بين المماليك والأمراء الروم والجركس، احتواها السلطان كالعادة بإجراءات حادة، كنفي هذا واعتقال ذاك..

ويبدو أن جنون الريبة من الجراكسة قد سيطر على الناصر فرج لدرجة غير منطقية، فيومًا ما كان مع بعض رفاقه في حديقة القصر، يشربون الخمر احتفالًا بعيد النيروز، فتمكن منه السُكر، فألقى نفسه في بحيرة صغيرة في حديقته، فألقى رفاقه أنفسهم وبقوا يلعبون بالماء، ثم هجم أحدهم عليه وأغرقه حتى كاد أن يقتله، لو لا أن أفاق زملاؤه من الصدمة وأنقذوه من يديه.. وعلى حظ السلطان فإن صاحب هذا المزاح الثقيل كان جركسي الجنس، وأن من أنقذوه كانوا أروامًا.. فعادت التوهمات والتشويشات تنتاب تفكيره، ولعب وزيره ورفيقه القاضي ابن غراب دوره بتحذيراته المستمرة له من الجركس، فاتخذ أغرب قرار يمكن أن يتخذه سلطان مسيطر على مقاليد الحكم. ففي أحد أيام عام ١٤٠٥م استيقظ أهل القلعة على خبر اختفاء السلطان، الذي قرر فجأة الهرب وترك السلطنة وكل ما يتعلق بها، وذهب للاختباء في دار ابن غراب خوفًا من مؤامرة مبهمة يتوهمها، ومن قاتل افتراضي يتربص به!

هنا يضطر الأمراء للبحث عمن يتولى العرش، فلا يجدون سوى المنصور عبد العزيز بن برقوق ـ أخو السلطان المختفي ـ الذي كان صبيًا بعد، ربما قد تجاوز الثانية عشرة بقليل.. فيضعونه على العرش، ويعيدون نفس السيناريو: العهد بالسلطنة، يمين الولاء، المؤامرات الجانبية، إلخ.. ولكن هذه المرة يقوم الداهية ابن غراب بما يمكن وصفه بلغة هذه الأيام الدارجة بـ«الدخول المفاجئ»، فيُظهِر السلطان، ويتحالف مع الأمير يشبك الشعباني، ويخلعان السلطان الصبي الذي لم يكمل أسابيع على

العرش، ثم يتولى فرج السلطنة من جديد، ويعتقل من سلطنوا أخوه ـ رغم أنه هو الذي اختار الانسحاب من السلطنة ـ بل ويعتقل أخوه عبدالعزيز، وأخوه الآخر إبراهيم، في سجن الإسكندرية، حيث يموتان فجأة بعد أقل من سنة، وسط شبهات قوية جدًا أن الناصر فرج قد دبر موتهما بالسم..

هنا يستقر له الأمر في مصر، لكن للجبهة الشامية رأي آخر، فيضطر للخروج على رأس ست حملات للسيطرة عليها.. وتعرض خلال الحملة السادسة لصفعة مهينة، فأثناء مطاردته الأميرين المتمردين شيخ ونوروز بالشام، فوجئ أنهما تسللا لمصر مع أعوانهما وسيطرا على القاهرة، وحاصرا قلعة الجبل، حتى اضطرا للفرار لمدينة الكرك عندما أرسل السلطان قوة تنقذ عاصمته وقلعة حكمه! ثم اضطر في النهاية، بعد معارك وحملات ومجازر، أن ينهي الأزمة باتفاق مع المتمردين لتهدئة الأوضاع..

ولم تكد الأوضاع تهدأ حتى دخل اختلال شخصية السلطان منذ العام ١٤١٢م، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، في منحنى حاد، كانت فيه نهايته.. فقد وسوس له مماليكه أن سبب كل المشكلات والفتن في السلطنة هم مماليك أبيه ـ وكانت علاقته بهم متوترة أصلًا، كما أسلفنا القول ـ ولأن الحاكم المستسهل لـ«الحل الأمني» عبارة عن «أُذُن» مفتوحة وعقل متحجر وقبضة غشيمة؛ فإن الحل عنده كان حاضرًا.. السجن والسيف.. هل تعتقدون أن السلطان لديه الوقت والبال الرائق ليحقق ويفكر ويحلل؟ لِمَ تضييع الوقت بينما يمكن حل كل شيء بالحزم الذي

يليق بالسلطان؟ أخذ الناصر فرج قراره إذن، وبدأت موجة اعتقالات للمئات من مماليك السلطان الراحل، ثم تلتها حفلات مسائية دامية أحياها الناصر فرج بنفسه، حتى إنه قد ذبح في ليلة واحدة مئة مملوك، وألقى جثثهم من فوق أسوار قلعة الجبل.. وبقي السلطان كل ليلة يزور المحابيس ويقتل بعضهم.. حتى قتل أكثر من ستمئة مملوك، لمجرد الشك في احتمال تسببهم في الاضطرابات مستقبلًا..

ويبدو أن القتل كحل جذري للمشكلات قد استهوى السلطان، فقد نقله من مستوى السياسة والحكم لمستوى المسائل الشخصية، فعندما بلغته بعض الشائعات أن طليقته ـ واسمها خوند بنت صرُق ـ قد أقامت علاقة عاطفية مع أحد الأشخاص خلال فترة العِدة، سارع باستدعائها، فجاءته متزينة وهي تحسب أنه قد قرر ردها لعصمته، وحيته وقبّلت يده، ففوجئت به يخرج النمجاة (سلاح بين الخنجر والسيف) ويطاردها في جناح الحريم وهو يصرخ بها «يا قحبة.. مراكيب الملوك تركبها البلاصية؟!!»، وهو يضربها بالسلاح حتى مزقها، ثم فصل رأسها عن جسدها وحمله، واستدعى من يتهمه بها، وأراه الرأس ثم قتله هو الآخر.. مرحى.. لابد أنه نام ليلتها وهو راضٍ عن رجولته حتى الانفجار فخرًا!

بل وطالت حلوله الجذرية الحازمة المباني، فقرر هدم تحفة معمارية هي مدرسة السلطان شعبان، المجاورة لقلعة الجبل، خوفًا من استخدام مآذنها العالية في مهاجمة مقر الحكم في حالة وقوع تمرد!

ومرة أخرى تطل الفتن برأسها من جبهة الشام، فيخرج الناصر على رأس حملته السابعة، وقد قرر هذه المرة عدم الرجوع إلا برؤوس الأمراء المتمردين.. ولكن كان الناصر على موعد مع خيبة ثقيلة، فسياساته الدموية وتقلباته بين الرضا والسخط والنعمة والنقمة جعلت الجميع يخشون أن تصيبهم بعض شظايا قراراته الجنونية، فانقلبت عليه مقدمة جيشه وانضمت للمتمردين عليه، وعلى رأسهم الأمير شيخ... ويرفض السلطان النصيحة بالعودة والتحصن في القاهرة، ويصر على استكمال القتال، ولكنه يُهزَم ويؤسَر ويُحبَس في قلعة دمشق.. ويختلف المتمردون المنتصرون في أمره.. فيغلب الرأي القائل بقتله..

وفي ليلة، يصعد لبرج قلعة دمشق أربعة رجال، يفسح لهم الحارس الطريق دون كلمة واحدة، يفتحون باب الزنزانة ليهب فرج من مرقده.. يلاحظ الأنصال اللامعة المطلة من تحت عباءات زواره.. يبقى متجمدًا في مكانه، وهو يقاوم رعدة انتابته بسبب لفحة هواء باردة هبت من الباب فصفعت جسده العاري إلا من سروال بالكاد يستر العورة.. يخشى أن يحسبوه يرتعد خوفًا.. ولأنه مدمن للقتل، فقراءة نية سفك الدم في نظراتهم لم تكن بالأمر الذي يصعب عليه.. دخلوا وأغلق رابعهم الباب، ولم يضيعوا مزيدًا من الوقت في تبادل النظرات المترقبة مع فريستهم.. حاول السلطان المخلوع المقاومة، كان يراوغهم بشراسة في محبسه، وكل منهم يحاول أن ينال من مقتله بخنجره، كان يجز بعنف على أسنانه، والدائرة تضيق حوله، وأسنان الأسلحة تنتزع مزعات من جلده ولحمه، وترسم خطوطًا داميّة على بدنه.. أخيرًا أغلقت الدائرة.. اخترق خنجر

ضلوعه حتى المقبض فهوى أرضًا.. أخرج أحدهم وترًا وخنقه به ليتأكد من موته.. لدهشتهم بقيت في جسده حركة، رغم أنهم قد انهالوا بعدها بخناجرهم عليه.. أخيرًا اضطروا لذبحه..

في الصباح رأى أهل دمشق جسدًا نحيلًا شابًا عاريًا ممزقًا مُلقى على قارعة الطريق بجوار قلعة المدينة.. اقترب أحدهم بحذر فتعرّف في ملامحه على السلطان المخلوع توًا.. تلفت حوله بحذر، ثم آثر السلامة، فتركه ورحل.. بقي الناس يمرون بالجثمان ويتشاغلون عنه كأنهم لم يروه.. تشجّع بعضهم فعبث بلحية القتيل، ثم تجاسر البعض فجرّوه برجليه على التراب حتى سئموا العبث.. أخيرًا جاء رجل مجهول حمل الجثمان ورحل به إلى حيث جهزه ودفنه في هدوء دون جنازة..

* * *

بعد مقتل الناصر فرج بن الظاهر برقوق جلس على كرسي السلطنة ١٦ سلطانًا، منهم واحد لم يتسلطن سوى لليلة، هو «خاير بك الدوادار»، ليطيح به قايتباي في الصباح.. كل هؤلاء ماتوا على فراشهم، سواء كان الفراش في القصر وهم في الحكم، أو في المنفى، أو المحبس، أو الدار وهم معزولون.. حكم قايتباي مصر لنحو ثلاثين عامًا، كانت بمثابة الصحوة الأخيرة لدولة المماليك، وأخيرًا مات سنة ١٤٩٦م، أي إن خيط دم سلاطين المماليك قد انقطع ـ مؤقتًا ـ في الأعوام بين مقتل الناصر فرج سنة ١٤١٢م وما بعد الوفاة الهادئة لقايتباي، لتعود دائرة دم السلاطين سيرتها الأولى فيما بعد ذلك، وحتى نهاية الدولة ذاتها...

(XIV)

محمد بن قايتباي.. القتل والتعذيب على سبيل التسلية..

القاهرة ـ ١٤٩٧م

هدرت المكحلة (المدفع) المسماة بـ«المجنونة»، وقذفت ما في جوفها من أعلى باب السلسلة بقلعة الجبل، نحو جامع السلطان حسن المواجه لها، حيث يتحصن المتمردون المحاصِرون للقلعة، بقيادة الأمير آقبردي الدوادار والأتابك تمراز الشمسي ـ ابن خالة السلطان.. قفز السلطان، الذي لم يتجاوز بعد السادسة عشرة من عمره، نحو السور ليرى أثر القذيفة.. كأن صاعقة هوت على شباك الجامع فأطاحته ومن وراءه.. استطاع السلطان محمد بن قايتباي أن يسمع من مكانه أنين وصراخ من شاء حظهم العاثر أن يكونوا أمام كتلة الحديد الملتهبة وهي تكسح

ما يقف في طريقها.. أخذ يتقافز مرحًا بشكل طفولي وهو يتأمل بغير تصديق الدمار الناتج عن طلقة مدفعه العملاق.. شعر بيد تجذبه بقوة، فالتفت ليرى خاله الأمير قنصوة، الذي صاح به: «مولانا السلطان.. ابتعد عن السور لا تصيبك رمية سهم أو بندق»..

أفلت السلطان ذراعه، وعاد يشب على السور، قائلًا بشغف لا يتناسب مع خطورة الموقف: «ترى كم قتلت القذيفة؟»، عاد الأمير يجذبه بإلحاح وهو يجيبه: «لا يهم كم قتلت، بل يهم من قتلت.. فحتى الآن أكثر قتلى جند أقبردي هم ممن يخدمونه من العربان.. ونحن نريد أقبردي.. وندعو الله أن يهدي ابن خالتكم الأمير تمراز لمفارقته، كيلا يروح معه في القتال.. مولاي، تعالَ معي من شأن خاطري»، طاوعه السلطان وسار معه باتجاه قاعة الحكم، هو يكمل حديثه كأن لم يسمعه: «يجب أن نصنع مزيدًا من المكاحل.. وأريد أن أتعلم بنفسي صنعة تلقيمها والضرب بها.. »، قاطعه خاله بصرامة، بعد أن تأكد أن لا أحد يسمعهما: «مولاي.. يا بني.. يا ابن أختي.. أستحلفك بكل عزيز أن تكف عن طيشك.. صار لك عام سلطان ولم تلتزم سلوك وآداب السلاطين... تنام في مجلسك في حضرة الأمراء، تهرب من القلعة ليلًا في زي العوام، وتذهب لبركة الرطلي وتخالط السوقة والحرافيش وجرابيع السكك.. تذهب لاحتفالات الغاغة، وتبيع الجبن، وتعربد هنا وهناك.. يا الله يا رحيم.. سلطان المسلمين يبيع الجبن المقلي ويسكر وينسطل في مراكب البغايا والمحششين، بل ويجلبهم لحوش القلعة ليلعب معهم؟»

زفر السلطان بضيق من مل تكرار التوبيخ، وقال «هذه متعتي؟ أليس لكل إنسان متعه؟ أنا أتمتع بالخروج والتخفف من المراسم والتشاريف، وما إلى ذلك من الأشياء الثقيلة على نفسي.. هل يعقل أن يكون حرفوش يسكن خرابة في زقاق بجوار كيمان أو مزبلة أكثر حرية من السلطان؟»

أجاب قنصوة بإصرار: «نعم يعقل!»، وقبل أن يُكمِل اضطر لقطع حديثه وهو يلحظ تقدم أحد الجند منهما، فربت على كتف السلطان قائلًا بسرعة: «نكمل حديثنا فيما بعد»، ثم نادى أحد المماليك الجلبان (المجلوبين كبارًا، بعكس المعتاد من جلب المملوك صغيرًا)، آمرًا إياه باصطحاب السلطان لجناحه.. التفت للجندي الذي مال عليه وهمس: «الأمير كرتباي الأحمر أرسلني لأخبركم أنه سيعمل على التحايل للنزول من القلعة وأخذ الجامع من أقبردي وتمراز وزمرتهما»، أومأ له قنصوة، ثم التفت ينظر بشرود لظهر ابن أخته المبتعد بصحبة مملوكه، وهو يفكر: «كان قايتباي ـ رحمه الله ـ مصيبًا فيما كنا نلومه فيه من اشتداد على هذا الفتى، وقسوة في معاقبته على نزقه وطيشه.. وكان بعيد النظر حين رفض توليته العهد من بعده».

* * *

انتهت الحرب..

استطاع كرتباي أن يأخذ جامع السلطان حسن من المهاجِمين.. كسر

قوة أقبردي، الذي تسحب منه أتباعه مجموعة تلو الأخرى، واضطر للهرب إلى الشام، بينما قُتِلَ تمراز.. داهم كرتباي الأحمر المتمردين، وقتل منهم الكثير.. تمخض الاقتتال الذي استمر أكثر من ثلاثين يومًا عن مقتل خمسين أميرًا وألفًا من المقاتلين مماليك وعربان.. كل هذا لا يهم السلطان، ما يهمه هو أن فترة حبسه الإجباري في القلعة، بحكم الحصار، قد انتهت، وأنه يستطيع الآن النزول لمواصلة إرضاء نزواته.. قام بالمراسم المعتادة لنهايات تلك الصراعات المسلحة، بتعيين هذا وعزل ذاك.. جعل خاله قنصوة دوادارًا (المسئول عن المراسلات والوثائق السلطانية، وهو منصب سيادي)، وعين كرتباي الأحمر أمير سلاح (مسئول عن الأسلحة السلطانية)، بينما استدعى الأمير العجوز أزبك بن ططخ ـ صديق أبوه السلطان الراحل قايتباي وذراعه اليُمنى ـ وجعله أتابكًا للعسكر.. حسنًا، الآن استراح من مشاغل الحكم وصراعاته.. وحان الوقت لإرضاء تلك الرغبة التي تعوي بداخله وتعذبه منذ أكثر من شهر..

تسلل هابطًا من القلعة متنكرًا في زي عامي.. يسعى إلى مستوى أعلى من المتعة.. الأمر بدأ معه بفضول مفاجئ لمشاهدة المشاعلي وهو يُعذّب المسجونين، أو ينفذ فيمن قُضِيَ بقتله حكم الإعدام.. انتهز فرصة انشغال أمراء مجلسه وذهب لأحد سجون القاهرة.. انتقى بعض المساجين وحملهم للقلعة.. استدعى المشاعلي، وقال له: «علّمني شغلك».. كانت ضحيته الأولى شابًا يكبره بسنوات قليلة، لا يعرف فيم سُجِن، ولا يهمه.. فقط رأى أن يجرب التوسيط في جسده النحيل، قبل أن يتمرن على ممارسته على أجساد أكثر سُمكًا وقوة.. «هذا»، قالها مشيرًا له فجُرِّد

المسكين من هدمته، ومدده المشاعلي على ظهره ممسكًا بيديه، بينما قبض أحد جلبان السلطان على قدمي الضحية.. رفع السلطان السيف عاليًا، وهوى به ليشق الجسد الممدد تحت سرّته، لكن دون أن يتم قطعه لنصفين كما تقتضي الصنعة.. تقدّم من الشاب المحتضر وأخذ يرمق رقصة رجليه في نزعه الأخير.. ارتجل لحنًا بدندنة شفتيه على إيقاع التشنجات الأخيرة للسجين المحتضر.. تشمم بفضول الدم الذي تفجّر ليتناثر عليه ويصل إلى وجهه.. رفع نظره للمشاعلي قائلًا بمرح: «لماذا لا تختلف رائحة دم هؤلاء عن رائحة دماء جنسنا؟»

تقدم المشاعلي من السلطان طالبًا السيف ليجهز على الشاب الذي طال عذابه عن الاحتمال.. رفض الفتى بإشارة عنيدة من يده، وهو يسأل بفضول مريض: «هل لو قطعنا أنفه وأذنيه ويده يشعر بالألم، كما لو فعلناه بهذا؟» مشيرًا لسجين آخر انهار على ركبتيه، فاندفع السلطان نحوه ورفع وجهه مجبرًا إياه على الالتفات إليه، ومردفًا: «لماذا لا نجرب؟ هو أولًا قبل أن يخرج السر الإلهي.. ثم أنت!»

لفح الهواء البارد وجهه وهو واقف يتذكر تلك الليلة «المرحة».. شعر بدغدغة نشوة في معدته وأسفل بطنه وهو يسترجعها.. أدرك أن وقوفه الطويل دون حراك قد يلفت نظر بعض عسس الليل، مما يهدد بكشف هويته.. وضع اللثام على وجهه، واشتد في سيره مقتحمًا زحام العامة حول بعض بياعي العلاليق (حلوى مسكّرة تعلق في دكان البائع بخيط، فتسمى علاليق)..

الليلة لا يريد سجينًا.. فمتعة تعذيب وقتل السجناء صارت ضعيفة، بل صار هذا أمرًا كله ممل.. كمن يضع لك السمك في طست ويجعلك تصيده..

الليلة سيصيد السمك من البحر مباشرة!

* * *

القاهرة تعيش في رعب..

القصص تتناقلها الألسن عن السلطان المراهق المجنون، الذي يتنكر ويخرج ليلًا.. يصطاد بعض الناس من مولد أو محششة أو مركب في النيل.. يصطحبهم للقلعة.. وهناك يبدأ الحفل..

وبينما لم يستطع خاله قنصوة السيطرة عليه، كان الأمير كرتباي الأحمر يقف له على الواحدة، فأرسله نائبًا على الشام ليتسنى له الانغماس في «هوايته»، دون مضايقة أو حجر من أحد..

أصبحت حالته أصعب، فصار يطوف بالشوارع بعد الغروب، ومعه أعوانه ورجاله خدم «صيده»، فإذا وجد أحدًا يمر قبضه وحمله للقلعة، وأقام على جسده الحفل الدامي..

والأمراء في سخط من سلوكه، وفي خوف من جنونه الذي امتد لقراراته، حيث قام في نزوة عابرة بإطلاق سراح بعض الأمراء من أتباع

الأمير أقبردي المتمرد.. فهاجت الدنيا وماجت، واستغل المماليك الجلبان الفرصة، فنزلوا للقاهرة ونهبوا بيوتها وأهلها.. واضطر الأتابك أزبك ـ الذي فاض به من عبث السلطان ـ للنزول بقواته للقاهرة للسيطرة على الوضع.. ولم تكد تلك الفتنة تنقشع حتى هجم الطاعون بضراوة حاصدًا مئتي ألف نفس.. والسلطان مازال في فجوره يعربد، بل وتمادى، ففرض على أزبك نفسه، وعلى الأمراء، ما يشبه الإتاوة، ليدفعها إلى مماليكه الجلبان لضمان استمرار ولائهم.. وشجّع هذا الجلبان على إثارة الشغب والتطاول على الأمراء، لحد قذف مجلسهم في القلعة بالحجارة.. وأدت هذه السياسات لحدوث جفوة بينه وبين الجميع، فتباعدوا عنه، ولم يعد يحضر مجلسه من الأمراء سوى أزبك ـ ربما وفاءً لأبيه/ صديقه الراحل قايتباي لا أكثر.. بل وحتى أزبك ابتعد عنه، وبدأ يحدث تقارب بين قنصوة ـ خال السلطان ـ وأتباعه، وحزب الأمير أقبردي ـ الذي كان قد توفي ـ وأجمع الكل على أمر واحد: هذا السلطان المجنون يجب القضاء عليه!



الجيزة ـ منطقة الطالبية ـ ١٤٩٨م

كاد السلطان أن يشرق بضحكه وهو على صهوة جواده، ومعه ابنا عمه جانم وجاني بك، مسترجعًا معهم البابات (عرض خيال الظل)

بذيئة الموضوع والأداء، والتي قدمها له أبو الخير الخيالي الشهير، في رحلته الأخيرة للتريض بالجيزة..

اقترب الرَكب الذي لم يكن يضم إلا السلطان وابني عمه وبعض السلاحدارية (حملة الأسلحة السلطانية)، من مخيّم الأمير طومان باي (وهو غير الشهيد طومان باي، آخر سلاطين المماليك)، المستعد للتوجه للبحيرة لقمع بعض المفسدين بها.. استوقفهم الأمير، وباس الأرض عند حوافر خيل السلطان، داعيًا إياه للترجّل وتناول الطعام معه.. بقي السلطان فوق فرسه وقال ضاحكًا: «ماذا ستطعموننا؟»

أمسك طومان باي لجام الفرس السلطاني، وصوب عينيه لعيني السلطان، قائلًا بقسوة مفاجئة: «الموت!»

ما إن قالها حتى انفتحت الخيام عن نحو خمسين مملوكًا أيديهم على السيوف..

لم يطيلوا الحديث.. بل لم يتحدثوا أصلًا.. لكنهم تركوا خلفهم جثة ممزقة، ارتمى إلى -جوارها رأس مشوّه ترمق عيناه السماء برعب، وقد أدرك صاحب الجسد والرأس أن القتل ليس بالشيء الباعث على المرح.. خاصة وأنت بعد في السابعة عشرة من عمرك..

وعلى مرمى حجر تناثرت جثث ابني عمه وبعض سلاحداريته..

وكأنهم خشوا أن تصيبهم اللعنة إن مسو جثته، أو حسبوا أن ساكن

جسده كان في الحقيقة شيطانًا مريدًا، فخافوا أن يتلبسهم.. تركوا جثته أيامًا في العراء.. حتى جاء بعض أهل الجيزة وجمع بقاياها وكفنها.. ودفنها بغير جنازة، لأنه لم يجد من يصلي عليه..

* * *

ـ فوضى ما قبل النهاية:

بعد مقتل محمد بن قايتباي؛ حاول الأمراء إقناع الأمير أزبك بن ططخ أن يتولى السلطنة، فرفض بعناد شديد، وتعلل..

كان الأمير أزبك جديرًا بالسلطنة، فقد قضى عمره ـ خاصة عهد قايتباي، حيث كان أتابكه وذراعه اليُمنى ـ في خدمة السلطنة بإخلاص، وقد اشتهر بالقوة والاستقامة والهمة العالية، كسر المتمردين وهزم العثمانيين المتحرشين بالحدود الشمالية للدولة، وأسس حي الأزبكية، بعد أن كان خرائب وصحارى.. وبقي في نشاط دائم رغم سنوات عمره، التي كانت عند موت قايتباي قد تجاوزت الثمانين.. حتى استحق أن يوصف بأنه «رجل قد فاتته السلطنة»، أي خسرته..

وليته قبل السلطنة، إذن لكان قد نظّم أوضاعها في ذلك العام الأخير من حياته (توفي ١٤٩٩م عن ٨٥ سنة)، ولم يكن العرش ليصبح لعبة في السنوات التالية..

ولكن.. تولى الأمير قنصوة خال السلطان القتيل السلطنة، وعيّن الأمير طومان باي دوادارًا، والأمير جان بلاط أتابكًا للعسكر، ولكنه سرعان ما تعرض لانقلاب عسكري منهما، فخُلِعَ سنة ١٥٠٠م، وهرب إلى بعض بيوت القاهرة، حتى دلّ البعض عليه، فحُمِلَ لسجن الإسكندرية، وبقي معتقلًا فيه حتى ما بعد الغزو العثماني.. ولكن، سنة ١٥١٧م ـ بعد احتلال العثمانيين لمصر ـ انتشرت شائعة أن بقايا المماليك ينتوون التمرد وتحرير مصر، وإخراج قنصوة من سجنه ووضعه على رأس السلطنة، فأمر سلطان العثمانيين سليم الأول بقتله، فخُنِقَ في محبسه..

بعد خلع قنصوة؛ تسلطن الأتابك جان بلاط، ولكنه لم يكن محبوبًا من الجند والأمراء، بل وكرهته العامة، لأنه قام بمصادرة الكثير من أموال الناس؛ ليدفع المال للمماليك الجلبان لكسب رضاهم وولاءهم.. استغل طومان باي ذلك، وقام بعد أقل من سنة من سلطنة جان بلاط بتدبير مؤامرة مع الأمير قصروه المتمرد بالشام، وزحفت قواتهما حتى بلغت القاهرة، وسيطرت على القلعة، وخلع طومان باي شريكه السابق جان بلاط، واعتقله أيامًا ليستجوبه عن مخابئ ثرواته، ثم أرسله لسجن الإسكندرية، حيث تم خنقه هناك بأمر طومان باي، الذي تسلطن وحمل لقب العادل، وكما غدر بحليف الأمس جان بلاط؛ كرر غدره بحق شريك اليوم قصروه، فدعاه لوليمة ثم اعتقله وقتله..

أثار غدر طومان باي غضب الأمراء، فجافوه، حتى لم يتمكن من تعيين أتابك للعسكر خشية انقلابه عليه، وبعد أقل من أربعة أشهر من

حكم طومان باي؛ جاهر الأمراء بالثورة ضده ـ في شهر رمضان ـ لعلمهم نيته القبض عليهم والتخلص منهم بعد صلاة العيد، وحاصروا القلعة، فاضطر للفرار منها ليلة العيد، واختفى هاربًا لمدة نحو أربعين يومًا، حتى تم القبض عليه من قِبَل الأمراء، الذين قتلوه فورًا لشدة سخطهم عليه..

بعد مقتل كل هذه الأسماء البارزة؛ تعرضت السلطنة لحالة من الفراغ السياسي.. وامتنع الكل عن التقدم لكرسي السلطنة، فلم يجد الأمراء بدًا من إجبار أكبرهم سنًا ومنصبًا على تولي الحكم، وهو الأشرف قنصوة الغوري، ليبدأ الفصل الأخير من حياته، وحياة دولة المماليك..



(XV)

قنصوة الغوري، طومان باي الثاني.. السقوط

ـ قنصوة الغوري... العائش خارج حدود الواقع:

بلاد الشام ـ مرج دابق ـ أغسطس ١٥١٦م:

لولا ما قرأ في القرآن، وسمع من الفقهاء، عن أهوال زلزلة الساعة لحسب السلطان قنصوة الغوري أنها ما كان يمر به في تلك اللحظات المشئومة...

فالجيش المكوّن من ثمانين ألفًا من المقاتلين قد انهار سريعًا أمام مدافع العثمانيين، استشهد كل من قائدي القلب والميمنة، وفر جنودهما، وخاير بك نائب حلب وقائد الميسرة انقلب عليه في خضم المعركة، وراح يؤخر

تقدم القوات الاحتياطية، وينشر شائعات مقتل السلطان نفسه.. بل وبدت واضحة مخامرته مع ابن عثمان ـ السلطان العثماني سليم الأول ـ بانضمامه لجيشه، ومعه جان بردي الغزالي نائب حماة...

إعصار الفوضى ضرب صفوف الجيش المملوكي، وتقدمت قوات سليم الأول حتى احتلت مواقع المماليك، وأسرت الخليفة العباسي وثلاثة من قضاة الشرع الشريف الأربعة..

تفجر جوفه بالحامض، ودارت الدنيا به، فانحنى يفرغ ما في بطنه، حاول التشبث بالجواد الجافل من الهول المحيط، واعتدل بصعوبة من يرفع جلمودًا بكتفيه، رأى في الأفق غمامة سوداء تعاظمت حتى ابتلعت الرؤية، اجتاحت عاصفة ثلجية نصف جسده الأيسر، فلم يدرك إلا وهو ساقط عن جواده، ورجله معلقة بركاب السرج، والحصان الهائج يكنس به الأرض ناهبًا إياها بسنابكه في فرار من الفزع العظيم.. طارت عمامته عن رأسه، الذي أدمته الأحجار المتناثرة، حاول التحامل على نفسه ليمسك بيده اليمنى ركاب الفرس، ليحرر نفسه من السحل.. لم يتحرر، ولكنه انبطح على وجهه ليسفّ تراب أرض المعركة، ويملأ فمه مذاق التراب والرماد.. أحس على لسانه بطعم دموي، فلم يعرف هل هو دمه أم دم بعض من ارتطم بها من جثث جنوده.. أحس مخالب الألم تعبث بأنحاء جسده بلا رحمة، حطم الألم العنيف أقفال ذاكرته، فانطلقت ذكرياته تتطاير أمام عينيه كحزمة أوراق نثرتها الريح في ليلة عاصفة.. رأى نفسه منذ خمسة عشر عامًا وهو يتوسل للأمراء أن يعفوه من تولي السلطنة، وإلحاحه لا يزيدهم إلا عنادًا، أخيرًا رضخ وهو يبكي، ولكنه

استحلفهم أنهم إذا أرادوا خلعه لم يقتلوه أو يحبسوه، وإنما يصرفونه صرفًا جميلًا.. تفاصيل فترة سلطنته صفعته واحدة تلو الأخرى، فلم يعد يدرك الموجودات، ولا حتى الألم عاد يحس به.. سنوات لم يعرف خلالها الهناء الحقيقي، وإن حرص أن يحيط نفسه بأسباب الرفاهية والفخامة.. الأمراء يخامرون بعضهم على بعض، ويقحمونه عنوة في صراعاتهم، بل ويخامرون عليه لخلعه، حتى إذا قال لهم «ها هي سلطنتكم خذوها! لا أريدها!» رجعوا وتشبثوا ببقائه على العرش.. ينحنون له ويُقبّلون الأرض بين يديه، ثم يعتدلون من سجودهم ويسقونه الحنظل... الجلبان يشغبون عليه، ويصيحون بوجهه كل حين مطالبين بالمزيد من العطيات والهبات.. يضطر لفرض المصادرات على الأموال والضرائب على السلع، فتقف العامة بطريق موكبه، ويصرخ الناس في وجهه «لماذا لا ترفع الظلم».. يحاصره العجز، فيصب جام سخطه على الخليفة، على سبيل تفريغ الغل قبل أن يحرقه.. تنغلق عليه حلقة المؤامرات، فيبحث عن معين له خارج نطاق الأمراء، ويجده أخيرًا في الحاج زين الدين بركات بن موسى المحتسب، ثم يكتشف أن هذا الأخير ليس أقل ثعبانية وانغماسًا في المؤامرات منهم.. يحس أنه قد صار فردًا وحيدًا في جب مسكون بالأفاعي، فينغمس في متعه التي لا تعدو جلسة سمر أو مجلس نقاش أدبي.. يشغل نفسه بمجالس الأنس ومآدب الطعام لينسى السياسة وألاعيبها، فما يكاد يلتقط أنفاسه حتى يداهمه العثمانيون بحدهم وحديدهم.. يقسو عليه القدر، فيكتب عليه أن تكون سلطنته شؤمًا على دولة المماليك العتيدة، ويكون سقوطها مقرونًا باسمه...

يرجع للوعي، فيدرك ابتعاد أصوات المعركة، مازال الفرس المرعوب يجره إلى الأفق القاتم.. تكتمل مأساته بألا يعرف أحد موضع جثمانه، وألا يكون له قبر معروف تُقرأ عنده الفاتحة.. سيتحدث الناس عن نهايته رجمًا بالغيب.. يقولون صدمته الهزيمة فأصابه الفالج ومات، سيقول البعض بل مص فص خاتمه المسموم لينجي نفسه من عار الأسر.. لا يهم ما يقولون، فبعد أعوام من المعاناة يترك لهم الدنيا بخيرها وشرها ويمضي إلى دار أخرى، ربما أرحم به من أهل هذا العالم القاسي.. لا يهمه أن يقال عنه سلطان نال الصيت بغير أن يغني عن السلطنة شيئًا.. يهمه فقط أن يغمض عينيه مرة أخيرة بلا خوف أو معاناة..

* * *

مجرد الشعور بالدهشة من هزيمة جيش المماليك بقيادة قنصوة الغوري هو أمر مدهش في حد ذاته..

فرغم كل اضطرابات وقلاقل العصر المملوكي، ورغم كل مساوئ كثير من سلاطينه، إلا أنه كان عصرًا «متحركًا».. أما عهد الغوري فقد اتسم بالسياسات النمطية التقليدية، الخاملة عن التجديد ومواكبة التطور.. وهو نفسه ـ قنصوة الغوري ـ كان كأنما هو يعيش خارج زمنه ومكانه وظروفه المحيطة، فلم تكن تحركاته على المستويين الداخلي والخارجي بالتي تتناسب مع الأحداث والمتغيرات.. وأبسط مثال على

ذلك هو فارق التسليح بين دولة عريقة في الفروسية والقتال وفنون صنع واستخدام السلاح، والدولة العثمانية الأقل عراقة وخبرة من المماليك في هذا المضمار.. ورغم ذلك كان مستوى تسليح الجيش المملوكي أقل بمراحل من ذلك الذي حظي به الجيش العثماني..

طومان باي الثاني... شهيد الواجب وقتيل الخيانة:

الديار المصرية.. منطقة الريدانية خارج القاهرة.. ١٥١٧م

شد قامته على صهوة جواده متأملًا قواته البائسة.. أربعون ألفًا هم خليط من بقايا عسكر المماليك، وبعض العربان، وشراذم من المجرمين الذين أطلق سراحهم وسُلّحوا مقابل الدفاع عن العاصمة، وبعض فرق الأعيان المسلحة، وحفنة من العبيد السود.. لكن لا قائد عسكري محنّك فيهم.. هذا هو جيش السلطان طومان باي الثاني، الذي سلطنه الأمراء على عجل، وتكلف عبء الدفاع عن القاهرة في معركة دولة المماليك الأخيرة..

أخيرًا ظهرت طلائع الجيش الجرار الذي يقوده ابن عثمان (سليم الأول).. اندلعت المعركة التي كانت نتيجتها معروفة سلفًا، مزق جيش العثمانيين الجيش المصري، مخلفة أمامها خمسًا وعشرين ألف شهيد.. فرّ الباقون وتشتتوا، اضطر طومان باي للفرار.. وفغر الغول العثمانلي فاه مبتلعًا القاهرة، ثم الإسكندرية، فباقي المدن واحدة تلو الأخرى..

«نبكي على مصر وسكانها.. قد خربت أركانها العامرة

وأصبحت بالذل مقهورة.. من بعد ما كانت هي القاهرة»

من رثاء الشيخ بدر الدين الزيتوني لما عاصر من بداية الاحتلال العثماني لمصر

«ثم دخلوا جماعة من العثمانية إلى الطواحين، وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش، وأخذوا عدة جمال من جمال السقايين، وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود، واستمر النهب عمالًا في ذلك اليوم إلى بعد المغرب، ثم توجهوا إلى شون القمح التي بمصر وبولاق، فنهبوا ما فيها من الغلال»

«وصاروا ينهبون بيوت الناس، حتى بيوت الأرباع، في حجة أنهم يفتشون على المماليك الجراكسة، فاستمر النهب والهجم عمّالًا في البيوت ثلاثة أيام متوالية»

«وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب، من فساقي الموتى ومن غيطان المطرية، فلما يحضرونهم بين يدي ابن عثمان يأمر بضرب أعناقهم»

«وصاروا العثمانية يكبسون الترب ويقبضون على المماليك الجراكسة منها، وكل تربة وجدوا فيها مملوكًا جركسيًا حزوا رأسه ورأس من بالتربة، فضرب في يوم واحد ثلاثمئة وعشرين رأسًا من سكان الصحراء، وقيل كان فيهم جماعة من الينابعة وهم أشراف، فراحوا ظلمًا لا ذنب لهم»

«فلما كثرت رؤوس القتلى هناك نصبوا صواري وعليها حبال وعلقوا عليها رؤوس من قُتل من المماليك الجراكسة وغيرها، حتى قيل قُتِلَ في هذه الواقعة فوق الأربعة آلاف إنسان، ما بين مماليك جراكسة وغلمان، ومن عربان الشرقية والغربية»

«فلما كثرت العثمانية بالقاهرة، صاروا كل من رأوه من أولاد الناس لابسًا لزمط أحمر أو تخفيفة يقولون له: أنت جركسي، فيقطعون رأسه»

«»فكان ينادي (يعني سليم الأول) كل يوم في القاهرة بالأمان والاطمئنان، والنهب والقتل عمّال من جماعته لا يسمعون له، وحصل منه للناس الضرر الشامل، ومما أشيع عنه أنه قال في بعض مجالسه بين أخصائه وهو في الشام: إذا دخلت إلى مصر أحرق بيوتها وألعب في أهلها بالسيف»

«وصارت العثمانية يمسكون أولاد الناس من الطرقات ويقولون لهم:أنتم جراكسة، فيشهدون عندهم الناس أنهم ما هم مماليك جراكسة، فيقولون لهم: اشتروا أنفسكم منا من القتل، فيأخذون منهم بحسب ما يختارون من مبلغ»

(بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ابن إياس)

حاول السلطان وبقايا ممن بقوا إلى جواره مقاومة العثمانيين عند الجيزة، ثم اضطرتهم الهزيمة التالية للانسحاب إلى البحيرة، ليلقوا هزيمة أخيرة..

بقي طومان باي وحده.. فتزيا بزي العربان، ولجأ لصديقه الشيخ حسن بن مرعي، شيخ إحدى قبائل العربان.. في ملجئه بدأ يفكر في سبل تنظيم مقاومة مسلحة ضد الغزاة، لكنه أفاق من خططه على تجريدة عثمانية اقتحمت عليه المكان، ليقع أسير خيانة من حسبه يحفظ آداب الضيافة وإغاثة الملهوف.. لم يحفظ ابن مرعي حتى سابق جميل طومان باي عليه، إذ شفع فيه يومًا عند السلطان السابق، الذي كان ينتوي سجنه مدى الحياة.. خان الشيخ ابن مرعي كل شيء، حتى حلفانه سبع مرات على المصحف لطومان باي أنه لا يسلمه ولا يشي به..

أحضروه إلى بين يدي سليم الأول، فلم يجثُ ولم يرتعد، واجه الغازي بأنه ليس نادمًا على قتاله، وأنه ما كان ليدع الغازي يبتلع السلطنة لقمة سهلة.. حبسه العثماني سبعة عشر يومًا.. لا يعرف لماذا تركه ولم يقتله فورًا، لكنه عرف أن الخائنين جان بردي الغزالي وخاير بك ـ الذي كان سليم الأول يناديه بـ«خاين بك» ـ ألحا على سلطان العثمانيين في قتله، خشية منهما من تفكير سليم في أن يعرض على السلطان المهزوم حكم مصر واليًا من قبله، فتفوتهما بعض مكافأة الخيانة..

ويقرر الطاغية العثمانلي إعدامه..

ويمضي آخر أبطال المماليك إلى مصيره رافعًا رأسه، شاقًا طريقه على رأس موكب الإعدام، ملقيًا السلام على العامة الذين احتشدوا بأمر ابن عثمان ليروا مصير من يحاول مقاومة السيد الجديد للبلاد.. وأخيرًا يصل إلى باب زويلة، فيلقي نظرة استهزاء على الحبل المعقودة أنشوطته

بإحكام.. يلتفت إلى الجمهور ويقول لهم: «اقرأوا لي الفاتحة ثلاث مرات»، ويقرأها فيرددونها خلفه، ثلاث مرات.. ثم يلتفت للمشاعلي ويقول له بهدوء: «اعمل شغلك»...

وترفع المشنقة الجسد النبيل حتى يعلو كعباه رؤوس شناقيه..

ويصرخ الناس صرخة عظيمة.. وتنوح القاهرة.. تنوح مصر كلها باكية شهيدها الذاهب، ومصيرها الأسود القادم على يد عتاة أجلاف، كتب عليها القدر أن تذوق الضيم والويل على أيديهم قرونًا..

ـ ما بعد النهاية:

يغتصب العثمانيون مصر، ويتناوب عليها بكواتها وبشواتها، ممتصين خيرها ودم ناسها لثلاثة قرون إرضاء للسلاطين القابعين في القسطنطينية.. يغتصب سليم الأول لقب الخلافة زورًا وبهتانًا، ويورثه نسله.. وبعد أن كانت مصر سيدة الشرق صارت مجرد «إيالة» (ولاية)، يرسل لها السلاطين واليًا كل بضعة أعوام، لينهب خيرها ويجلد أجساد أهلها لصالح أسياده العثمانلية، الذين مزقوا وحدة مصر والشام، وقطعوا بسكين بارد أوصال العالم العربي، الذي كان ـ تقريبًا ـ مملكة واحدة، وزرعوا بين شعوبه الشقاق والفتن، ممهدين الطريق، عبر تلك القرون، للمستر والمسيو الأوروبيين لابتلاعها قطعة تلو الأخرى، في مأدبة اتفاقية سايكس بيكو لتقاسم تركة الرجل العثماني المحتضر..

سادت عصر الاحتلال العثماني للشرق حالة من الجمود الحضاري.. فبينما تزدحم الفترة من ١٢٥٠م إلى ١٥١٧م بالأسماء البارزة في مختلف مجالات العلوم والفنون، والتي قدمتها المنطقة العربية الإسلامية في عصر المماليك، تكاد تخلو الفترة من ١٥١٧م إلى ١٨٠٥م من أية أسماء تتردد في أرجاء العالم باعتبار أن أصحابها هم سفراء عبر الزمن من قِبَل الحضارة العربية الإسلامية..

والغريب أن يحاول البعض تبرير الاحتلال العثماني للمنطقة العربية بأن الدولة العثمانية قد تولت مسئولية حماية العالم العربي من الغزو الأوروبي.. كان هذا ليكون صحيحًا لو لم يسلك العثمانيون سلوك الغزاة الأجانب، ويعتبرون الإنسان العربي عبدًا لهم.. بينما هم في واقع الأمر قد جعلوا مهمة الاستعمار أكثر سهولة، بأن أضعفوا العرب حضاريًا وسياسيًا، بل وحتى إنسانيًا..

كذلك ثمة من يبرر غزو العثمانيين للشام ومصر بأن أهل هذه البلاد قد استغاثوا بهم من ظلم المماليك في عهد قنصوة الغوري.. ويُرد على هذا التبرير الهَش بأن النشاط العدواني العثماني يرجع لما قبل عهد الغوري بفترة ليست بالقليلة، وقد كان يتمحور حول الطمع في بلاد الشام، ومحاولة تأليب الإمارات التركمانية القائمة في الأناضول لمهاجمة حلب والمناطق المتاخمة لها.. ثم إنه لو كان العثمانيون غيورين بهذا الشكل على «تعرض المسلمين للظلم»؛ فلماذا لم يتدخلوا بجيوشهم الجرارة لإنقاذ المسلمين المحاصرين في غرناطة قبل سقوطها؟ ولماذا أحبطوا الاتفاق بين قايتباي وسلطانهم

بايزيد الثاني لإنقاذ ما تبقى من الأندلس، ووجهوا خيلهم وسلاحهم ضد المماليك؟

ولو كانوا قد جاءوا حقًا لإنقاذ الناس من ظلم المماليك؛ فبِمَ يُبَرَر ظلمهم هم أنفسهم بحق شعوب المناطق التي احتلوها؟

لم يكن المماليك ملائكة، وكذلك لم يكونوا شياطين، ولكنهم في كل الأحوال قد أقاموا دولة عظيمة قدمت للعالم محتوى حضاري هائل، وتركت بصمة في الإدارة والحكم.. بالطبع فإنه من غير الممكن أو المقبول إنكار سلبياتها، من تحزبات، وشللية، وانقلابات، ومؤامرات، وفترات دموية، وحالات كثيرة من الظلم، بالذات الطبقي.. لكنها في المجمل كانت دولة «ذات بصمة».. يمكنك أن تكرهها أو تحبها، لكنك لا تستطيع أن تتجاهلها.. ولا أن تتجاهل خيط الدم المتصل فيها من أيبك وشجر الدر، حتى طومان باي الشهيد..

تم بحمد الله

الإسكندرية/ العصافرة... ٢٩ أكتوبر ٢٠١٥م

أهم المصطلحات المملوكية

١ـ نائب السلطنة: هو نائب السلطان وأعلى منصب بعده (حتى نهاية العصر المملوكي الأول).. ولقبه هو «كافل الممالك الشريفة الإسلامية»، وهو يعتبر بمثابة السلطان الثاني فيما يتعلق بطبيعة مهامه.

٢ـ أتابك العسكر: هو الرتبة العسكرية الأعلى في القيادة المملوكية، فهو القائد العام للجيش المملوكي بمختلف درجاته، وقد تقدمت مكانة هذا المنصب على منصب نيابة السلطنة بدايةً من العصر المملوكي الثاني. واللفظ نفسه يعني «أبو الأمراء»، حيث أن «أتا» تعني الأب، و»بك» تعني الأمير باللغة التركية.

٣ـ الدوادار: معناها «الممسك بالدواة»، وهو المسئول عن جميع المراسلات والمكاتبات السلطانية، وقد تقدمت مكانة الدوادار على الأتابك ونائب السلطنة في نهاية العصر المملوكي الثاني، وقد كان لبعض الأمراء دواداره الخاص المسئول عن مكاتباته.

٤ـ الأستادار: معناها «أستاذ الدار»، وهو المشرف على احتياجات ونفقات ولوازم البيوت السلطانية، من طعام وشراب وكساء ونحو ذلك.

٥ـ أمير آخور: هو «أمير الإسطبل السلطاني»، أي المسئول عن إسطبل السلطان وما فيه من خيل وإبِل وأنعام للركوب.. وكلمة آخور معناها الإسطبل بالفارسية.

٦ـ أمير سلاح: هو المسئول عن الأسلحة السلطانية، وهو قائد للمماليك السلاحدارية، أي الحاملين لسلاح السلطان، فضلًا عن كونه مسئول عن تسليح الجيش المملوكي.

٧ـ أمير مجلس: هو المسئول عن مجلس السلطان وعن أطبائه.

٨ـ أمير جاندار: جاندار تعني بالتركية «الممسك بالأرواح»، وهو المسئول عن اعتقال أو إعدام من يأمر السلطان فيهم بذلك من الأمراء، إضافة لكونه المسئول عن الأبواب السلطانية، والاستئذان للناس عند رغبتهم الدخول على السلطان.

٩ـ الوزير: هو المسئول عن الأمور المالية وبعض الإداريات، وكان يشغلها عادة أهل القلم لا السيف، وقد تراجعت أهمية تلك الوظيفة عبر العصر المملوكي كله، حتى صارت تُعطَى للراغب فيها مقابل تعهده بدفع مبلغ من المال للخزانة السلطانية.

١٠ـ رأس النوبة: هو بمثابة القائد المسئول عن المماليك السلطانية، أي المملوكون مباشرة للسلطان، وهو الذي يحكم بينهم ويقضي فيهم.

١١ـ الجاشنكير: هو المسئول عن طعام وشراب السلطان وتذوقه قبله للتأكد أنه غير مسموم.

١٢ـ أمير شكار: المسئول عن الحيوانات والطيور التي يستخدمها السلطان في الصيد.

١٣ـ المهمندار: المسئول عن استقبال الضيوف والسفارات الأجنبية.

١٤ـ شاد العمائر: المسئول عن الإنشائات.

١٥ـ الكاشف: المسئول عن كشف الأراضي وفحصها ومعرفة مساحاتها وعائدها.

١٦ـ كاتب السر: المسئول عن الكتابة للسلطان، أو ما يمكن وصفه بالسكرتارية.

١٧ـ كاتب الإنشاء: المسئول عن صياغة وحفظ الوثائق السلطانية من مراسلات وأوامر ومعاهدات.

١٨ـ ناظر الخاص: هو المسئول عن إقطاعات السلطان وعقاراته.

١٩ـ نائب الشام: هو نائب السلطان على الديار الشامية، التي تبدأ من حدود فلسطين مع مصر، ومقره دمشق، وتحته بدرجة نواب المدن الشامية، مثل حمص وحماة وحلب وغيرها.

٢٠ـ المحتسب: هو المسئول عن مراقبة الأسواق، من حيث توفر السلع وصلاحيتها واعتدال أسعارها، كذلك هو المراقب لنظافة المرافق ونظم الأمان بها (مثل توفر المياه الاحتياطية لإطفاء أي حريق محتمل، أو خشونة أرض الحمامات العامة تجنبًا لتعرض مرتادوها للسقوط والإصابة)، كما أنه مسئول عن ترتيب الأسواق بحيث لا يضر بعضها بعضًا (مثل منع وجود دكاكين الصباغة والدباغة بجوار المطاعم)، كذلك يراقب التزام الآداب العامة في المرافق والطرقات، ونظافة الشوارع، بل وحتى الرفق بالحيوان (كالأمر بإنزال الحمولة عن ظهر الدابة فور توقفها لأي سبب منعًا لإيلامها).. وأشهر من تولوا هذا المنصب هو المؤرخ المقريزي، والمحتسب الشهير الحاج زين الدين بركات بن موسى.

٢١ـ والي القلعة: هو المسئول عن قلعة الجبل مقر الحكم وأهم أبوابها.

٢٢ـ والي القاهرة: هو المسئول عن العاصمة وقائد الشرطة بها.

٢٣ـ الخليفة: بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، قام السلطان الظاهر بيبرس بإعادة إحيائها في القاهرة، ولكن أصبح الخليفة مجرد صاحب منصب شرفي يُفوِّض السلطان كل مهام الحكم.

٢٤ـ قضاة الشرع الشريف: أقرّ الظاهر بيبرس أن يكون لمصر أربعة قضاة، قاضٍ لكل مذهب، أعلاهم رتبة الشافعي، ثم المالكي، ثم الحنفي، ثم الحنبلي، واستمر الحال بهذا الشكل طوال عصر

المماليك، ولكل قاضٍ عدد من النواب لنظر القضايا. وكان القضاة الأربعة مسئولين كذلك عن الفتاوى الدينية للسلطة المملوكية، والشهادة على تولية أو عزل السلاطين.

٢٥ـ الرتب العسكرية المملوكية: أقلها «أمير خمسة»، وهو الأمير على خمسة فرسان، ثم «أمير عشرة»، وهو الأمير على عدد من عشرة لعشرين فارسًا، ثم «أمير طبلخانة»، وهو المسئول عن نحو أربعين فارسًا، وله الحق أن تُدَق له الطبول عند تحركه على سبيل التحية، وأعلاها «أمير مئة مقدم ألف»، أي إنه أمير لمئة فارس في وقت السلم، ومقدم على ألف فارس في وقت الحرب.

٢٦ـ باش العسكر: قائد الحملة العسكرية.

٢٧ـ الجاويشية: الجُند.

٢٨ـ المشاعلي: الجلّاد، القائم بتنفيذ الإعدام والتعذيب.

٢٩ـ الطواشي: هو عبد من الخصيان (منزوع الخصيتين أو العضو الذكري)، يكون عادة مسئولًا عن الخدمة في أجنحة الحريم أو عنابر صغار المماليك. والحكمة من ذلك هو ضمان عدم تعرضه جنسيًا لبعضهم.

٣٠ـ بطّال: هو الأمير حين يخلع من منصبه ويُنتزع منه إقطاعه.

٣١ـ طرخان: أمير متقاعد مع بقاء إقطاعه.

٣٢ـ الأهراء السلطانية: هي مخازن غلال السلطان، وتعتبر بمثابة احتياطي من الغلال تحسبًا لأوقات المجاعات والغلاء الشديد.

٣٣ـ الأستاذ/ علاقة الأستاذية: الأستاذ هو الأمير أو السلطان المالِك للمملوك، والعلاقة بينهما اسمها «الأستاذية»، حيث يكون بمثابة أب روحي للمملوك، لأنه يشتريه صغيرًا ويربيه ويدربه ويعلمه، ثم يعتقه ويجعله من رجاله، ويُنسَب المملوك عادة له، فلو كان لقب الأستاذ «الأشرف»؛ يصبح لقب المملوك «فلان الأشرفي» مثلًا.. وهي علاقة روحية مقدسة قائمة على الولاء والطاعة العمياء، بل وعادة ما تستمر بعد موت الأستاذ بالولاء لأهل بيته.

٣٤ـ الخشداش/ علاقة الخشداشية: هي العلاقة بين المملوك ورفيقه في ملكية نفس الأستاذ.. وهي أشبه بعلاقة الأخوة، ولها نفس قدسية علاقة المملوك بأستاذه.

٣٥ـ أولاد الناس: عندما يتزوج المماليك وينجبون فإن هذا الجيل من أبنائهم، الذي لم يمسه الرق، يسمى «أولاد الناس».. وقد كانوا يحسبون من «جُند الحلقة»، وهي فئة من الجيش المملوكي بها أولاد الناس والعامة والمتطوعين وبعض العربان.. ومن أشهر «أولاد الناس» المؤرخ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة».

٣٦ـ الجيش المملوكي: كان مكونًا من «المماليك السلطانية»، وهم مماليك السلطان، سواء الذين اشتراهم قبل سلطنته أو بعدها، أو من ضمهم إليهم من مماليك بعض الأمراء بحكم الوفاة أو العزل، ثم مماليك الأمراء الخارجين للحرب، حيث يلتزم كل منهم بتجهيز فرقة من المقاتلين، ثم جند الحلقة، وهم من أولاد الناس وأهل العمامة والمتطوعين والعربان.

٣٧ـ العلم المملوكي: عادة ما كان لونه الأصفر الذهبي، وتُطرز عليه أسماء وألقاب السلطان، ويُسَمَى «العُصابة السلطانية».. ومعه العلم الخليفتي، وهو علم الخلافة العباسية الأسود، وكان يحدث أحيانًا عند دخول بعض ملوك آسيا في الإسلام أن يرسل للسلطان يطلب علمًا خليفتيًا يقاتل تحته.

٣٨ـ الرنك: هو شعار كل أمير من المماليك، يكون على داره، وأحيانًا أسلحته وأسلحة مماليكه.

٣٩ـ الطائر: هو تمثال لنسر رمز للدولة المملوكية، وغالبًا يرجع للأيوبيين (نسر صلاح الدين)، يُرفَع فوق موكب السلطان.

٤٠ـ الجاليش: هو راية بها خصلة شعر صناعية كبيرة بلون السلطنة الأصفر، تُرفَع كعلامة لمقدمة الجيش المملوكي أو الموكب السلطاني. ومع الجاليش كان يوجد «السنجق»، وهو راية صفراء صغيرة.

٤١ـ النمجاة: سلاح بين الخنجر والسيف، وكان السلطان يحمل معه النمجاة التي تعتبر مثل الصولجان في الممالك الأخرى.

٤٢ـ الدستور: الإذن السلطاني.

٤٣ـ الجامكية: هي راتب الجند والمماليك.

٤٤ـ الخاصكية: هم مماليك السلطان المقربون، ممن يقيمون معه ويخدمونه.

٤٥ـ خوند/ خاتون: خوند هو لقب فارسي يعني الأمير أو السيد، يُستَخدَم لمخاطبة السلطان، وأحيانًا كبار الأمراء، وهو للمذكر والمؤنث، فقد كان يُستخدم لمخاطبة زوجة السلطان، فيقال «خوند فلانة».. والخاتون هو لقب مؤنث مشابه، كان عادة يُستخدم لمخاطبة سيدات المماليك والسلطان دون زوجاته، فيقال «خاتون فلانة».

٤٦ـ المماليك الجلبان: في العصر المملوكي الثاني أصبح بعض السلاطين يشترون المماليك كبارًا، ويختصرون فترة تدريبهم، وهو مما أضعف الدولة مع الوقت، وكانوا عادة فئة مشاغبة مشاكسة سيئة الخلق.

٤٧ـ العربان: هم قبائل الأعراب، وهم مختلفون عن «العرب»، كالقرشيين مثلًا.

٤٨ـ الخانقاه: تُنطَق الآن «الخانكة»، وهي مكان إقامة المنقطعين

للتصوف، وعادة ما يخصص لها وَقف للإنفاق عليها وعلى المقيمين بها من قِبَل بعض الأمراء أو السلاطين. بل وكانت بعض الخانقاوات ذات مكانة كبيرة، لدرجة تعيين السلطان مشايخ لها، مثل الخانقاه الشيخونية وخانقاة سرياقوس.

٤٩ـ نائب الغيبة: هو من يعينه السلطان لينوب عنه في غيابه للحرب أو تفقُد المدن.

٥٠ـ جان بلاط: هو الأمير المسئول عن ترتيبات البلاط السلطاني.

٥١ـ العترسة/ العطعطة: البلطجة.

٥٢ـ البقر السارح/ زعيرات السوق/ الخواطي: أوصاف العاهرات.

٥٣ـ الغاغة/ الحرافيش/ السوقة: هم الفئات المتدنية من العوام، من أهل العربدة والتشرُد والفوضى، وهم المناقضون لـ«أهل الحشمة».

٥٤ـ التوسيط: عقوبة الإعدام الأشهر عند المماليك، وهي تكون بتمديد جسم المحكوم عليه ثم ضربه تحت سرته بالسيف، لقطع جسده نصفين وإسقاط أمعائه.

٥٥ـ التشهير/ التجريس: هي عادة ما تكون بدق المسامير في أطراف المحكوم عليه في الخشب، وتعليقه على جمل، والطواف به مع المناداة بجريمته، حتى يصل لمكان إعدامه.

٥٦ـ بوس الأرض: التحية المملوكية للسلطان كانت بالسجود

وتقبيل الأرض بين يديه، ولم يكن يُعفَى منها سوى الفقهاء، ولكن بعض السلاطين أبطلوها لأسباب دينية.

٥٧ـ حل الوسط: حركة رمزية، عندما كان السلطان يتهم أحد الأمراء في ولائه كان أحيانًا الأمير في غضبه من التهمة يحل حزامه عن وسطه، كأنما يدعو السلطان لتوسيطه فورًا لو كان يشك في ولائه له.

٥٨ـ الدينار الجيشي: هو عملة لقياس عائدات إقطاعات الجيش.

٥٩ـ الدنانير الزغل: العملات المزيفة.

٦٠ـ ديوان الأحباس: الديوان المسئول عن الأوقاف الشرعية.

٦١ـ ديوان الجيش/ ناظر الجيش: المسئول المدني عن سجلات وإقطاعات وتمويل وإداريات الجيش المملوكي.

٦٢ـ زمام الدار: المسئول عن الحرملك السلطاني، وهو عادة من الطواشية.

٦٣ـ أمير الحج: المسئول عن قافلة الحجاج ذهابًا وإقامة ورجوعًا.

٦٤ـ الألقاب: «فلان الدين»، كان عادة من ألقاب الأمراء ورجال القلم والفقهاء، مثل «ركن الدين بيبرس»، «زين الدين بركات»، «جلال الدين السيوطي»، وكان الأمير إذا تسلطن حمل لقبًا إضافيًا، مثل «الناصر، المنصور، الظاهر، الأشرف»، إلخ.. كما توجد النِسبة، وتكون عادة لمالِك السلطان أو الأمير قبل عتقه،

مثل «بيبرس البندقداري»، نسبة لسيده السابق علاء الدين البندقداري، أو نسبته لبائع المماليك الذي باعه لسيده، فيقال «من فلان» أي «الذي اشتراه سيده من فلان»، أو «يُنسَب له مباشرة، مثل «قاتباي» المنسوب لبائعه محمود، فيقال «قايتباي المحمودي».. هذا غير بعض أسماء الشهرة، مثل الأمير طشتمر المشهور بـ«حمص أخضر» لاشتهار حبه لهذا الحمص.

٦٥ـ القميز: هو لبن الخيل أو الحمير المتخمر، وهو من المشروبات المفضلة للمماليك.

٦٦ـ الخنق بالوتر: وسيلة إعدام مملوكية، مغولية الأصل، وسبب استخدامها معتقد مغولي قديم بحرمانية إسالة دم ملكي، فيتم قتل الملك حال الانقلاب عليه بلف وتر قوس على عنقه وشده، ثم أصبحت من وسائل الإعدام المملوكية.

٦٧ـ بعض الجنسيات حسب النطق في العصر المملوكي: البرتقال = البرتغال، الكتلان = أهل إقليم كاتالونيا في إسبانيا، وقد كانت لهم استقلالية خاصة في التعامل جعلت لهم لقبهم الخاص، الجنوية = أهل جنوة، السودان = ليس المقصود بها المنتمين لدولة السودان، وإنما أصحاب البشرة السوداء عامة، المُغُل=المغول، الإنكلتير: الإنجليز، الفرنجة = الفرنسيون بشكل خاص، والأوروبيون بشكل عام، بلاد سيس = هي أرمينيا القديمة في هضبة الأناضول.

٦٨ـ التُّرك: المقصود بهم هنا المنتمين للجنس التركي وليس للدولة العثمانية التركية، فتلك الأخيرة كان يقال عنها «الروم»، لأن الناس في ذلك العصر كانوا يصفون أهل المكان باسم المكان وليس العكس، فيقال للعثمانيين «الروم» لأنهم يعيشون في أرض الروم.

٦٩ـ ألقاب أجنبية: القان = هو «الخان»، وهو لقب الملك المغولي، الباب = هو بابا روما الكاثوليكي، الإنبرور = الإمبراطور، ري دي فرانس = ملك فرنسا، الكُند = الكونت، البطريق = رتبة عسكرية بيزنطية.

٧٠ـ بطرك اليعاقبة/ النصارى: هو بطريرك الكنيسة الأرثذوكسية المصرية.

٧١ـ البيمارستان المنصوري: هو المستشفى العام، ويُنسَب للمنصور سيف الدين قلاوون، وكان بمثابة مستشفى مركزي لكل التخصصات بما فيها النفسية والعقلية، وكذلك كان بمثابة مدرسة للطب.

٧٢ـ زردخانة: هي مخزن ومصنع الأسلحة، وكان المسئول عنها يسمى زردكاش.

٧٣ـ قاضي الجند: المختص بنظر قضايا الجند.

٧٤ـ القاصد: السفير.

٧٥ـ الكفارة: عبارة عن فطائر وطعام يوزعان أمام الجنازة على سبيل طلب الرحمة للميت.

٧٦ـ الكلفتاه/ الكلوتة: عمامة مملوكية صغيرة.

٧٧ـ الإخراق بفلان: التنكيل به.

٧٨ـ الشنكلة: التقييد بالحديد.

٧٩ـ التعويق: تقييد الحركة.

٨٠ـ الخلعة: هي رداء ثمين يخلعه السلطان على من يوليهم منصبًا، أو يرضى عنهم، أو يرغب في تكريمهم.

٨١ـ التقادِم: الهدايا الثمينة للسلطان.

٨٢ـ الجنائب: الخيل الاحتياطية المصاحبة للجيش.

٨٣ـ صولق: جراب جلدي يحمل فيه الفارس طعامه في السفر.

٨٤ـ المخامرة/ المعمولية: كلمات تعني التآمر والتدبير ضد شخص ما.

٨٥ـ الكبس: مثل «الكبسة» بالعامية، أي المداهمة المفاجئة.

٨٦ـ خزانة شمائل: واحد من أبشع السجون، وقد تعرض المؤيد شيخ للحبس فيه، فنذر لله هدمه لو أخرجه من محنته، وعندما خرج منه، وبعد أن تولى السلطنة؛ هدمه وبنى مكانه مسجد المؤيد ومدرسته، وأمر الخطباء فيه أنهم بعد ذكر الله ورسوله وعند ذكر

السلطان بالدعاء ينزلون سلمة عن المنبر، تواضعًا عن أن يُذكر اسم السلطان على نفس مستوى ارتفاع ذكر الله.

٨٧ـ خزانة البنود: هي قاعة خاصة بحفظ الأعلام والرايات، وكانت تستخدم أحيانًا للاعتقال.

٨٨ـ الرَبع: مجمع سكني به بيوت تؤجر وبأسفله دكاكين.

٨٩ـ عباءة سمور: عباءة مزينة بالفراء كانت منتشرة في مصر، حيث كان المصريون في فترات الرخاء يأنفون من ارتداء الجوخ ويفضلون ارتداء الفراء، خاصة في فترات الرخاء، أما الجوخ فيرتدونه فوق الثياب في المطر فقط.

٩٠ـ الحوش السلطاني: هو ساحة في قلعة الجبل، كان السلطان يخصص أيامًا معينة يجلس فيه لاستقبال أصحاب المظالم من عامة الشعب.

٩١ـ ضرب الأكرة: لعب رياضة البولو، والعصا المستخدمة تُسَمَى «الصولجان».

٩٢ـ شق إلى القلعة: أي شق القاهرة بموكبه إلى القلعة.

٩٣ـ البرطلة/ البرطيل: الارتشاء/ الرشوة.

٩٤ـ انكشف رخه: أي انكشفت مؤامرته.

٩٥ـ المعاصير: آلة تعذيب بعَصر المفاصل.

٩٦ـ احتاط على موجوده: أي صادر ممتلكاته، ويقال «احتاط على

موجوده من صامت وناطق»، أي «صودرت ممتلكاته من جمادات وعبيد». وأحيانًا يقال «أوقع الحوطة عليه» بنفس المعنى.

٩٧- الحراقة: مركب خاصة بإطلاق قذائف النار.

٩٨- النفاطين: قاذفو كرات اللهب.

٩٩- الكحالين: أطباء العيون.

١٠٠- الشواني: مفردها «شيني»، وهي مركب حربي طويل يستخدم فيه ١٤٠ مجدافًا، بها مخازن للطعام وصهاريج للماء، ويمكن فتح مؤخرتها لإنزال الجنود.

١٠١- المقياس: هو مقياس النيل في جزيرة الروضة، حيث يقيس ارتفاع ماء النيل، ويُحتَفَل بوفاء النيل كل عام بأن يقوم السلطان بـ«تخليق المقياس»، أي تعطيره، ثم يهبط المسئول عن المقياس بثيابه في الماء، ويكسر سدًا رمزيًا ليفتح الماء ويحتفل الناس.

١٠٢- المتجر السلطاني: هو جهة مختصة بالمتاجرة لصالح السلطان ببضائعه وعائدات من أراضيه ومصانعه.

١٠٣- ابن عثمان: هو اللقب الذي أطلقه المماليك وأهل هذا العصر على سلاطين العثمانيين.

١٠٤- عمل له مهم حافل: أي أقام له وليمة حافلة.

١٠٥- الطلب/ التطليب: الطلب هو بمثابة الكتيبة أو الفرقة العسكرية، والتطليب هو بمثابة التعبئة.

المراجـع

١٠٦- تاريخ المماليك في مصر والشام ـ د. محمد سهيل طقوش.

١٠٧- عصر سلاطين المماليك ـ د. قاسم عبده قاسم.

١٠٨- مصر المملوكية ـ د. هاني حمزة.

١٠٩- العصر المماليكي ـ د. سعيد عاشور.

١١٠- السجون والعقوبات في مصر المملوكية ـ د. علاء طه رزق.

١١١- تربية الأطفال في عصر سلاطين المماليك ـ د. سحر السيد إبراهيم.

١١٢- عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ـ د. علاء طه رزق.

١١٣- الأسواق المصرية في عصر سلاطين المماليك ـ د. قاسم عبده قاسم.

١١٤- النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ـ د. قاسم عبده قاسم.

١١٥- أهل العمامة في مصر في عصر سلاطين المماليك ـ د. حسن أحمد البطاوي.

١١٦- الحسبة في مصر في عصر سلاطين المماليك ـ نجوان أحمد سعيد.

١١٧- فرسان الإسلام وحروب المماليك ـ جيمس واترسون.

١١٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ابن تغري بردي.

١١٩- البداية والنهاية ـ ابن كثير.

١٢٠- بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ابن إياس.

١٢١- حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة ـ السيوطي.

١٢٢- السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزي.

١٢٣- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ المقريزي.

١٢٤- إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ المقريزي.

١٢٥- الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك ـ د. قاسم عبده قاسم.

١٢٦- أسد مصر السلطان الظاهر بيبرس والشرق الأدنى ـ بيتر ثوراو.

١٢٧- تاريخ مصر في العصور الوسطى ـ ستانلي لين بول.

١٢٨- دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك ـ د. علاء طه رزق.

١٢٩- ملامح القاهرة في ألف سنة ـ جمال الغيطاني.

١٣٠- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ـ ابن دقماق.

١٣١- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ـ بيبرس الدوادار.

١٣٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ القلقشندي.

١٣٣- العثمانيون ـ د. محمد سهيل طقوش.

١٣٤- الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد بك.

١٣٥- حضارة العرب ـ جوستاف لوبون.

١٣٦- أشهر الاغتيالات في الإسلام ـ خالد السعيد.

١٣٧- الاغتيال السياسي في الإسلام ـ هادي العلوي.

المحتويات

دم المماليك

أربعون انقلابًا عسكريًا - على الأقل - فضلاً عن المحاولات الفاشلة..

أكثر من عشرين سلطانًا انتهت حياتهم بالاغتيال،

أو الإعدام، أو شابت موتهم شبهة اغتيال..

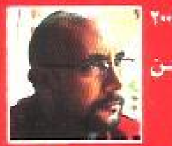
مؤامرات، ومؤامرات مضادة، بين الأمراء بعضهم وبعض، أو بينهم وبين السلاطين..

هذا جزء بسيط من حصيلة الاضطرابات في العصر المملوكي، الممتد بين عاميّ ١٢٥٠م و ١٥١٧م، والذي كان قانون تداول السلطة فيه هو قاعدة "الحكم لمن غلب"، المنسوبة تاريخيًا للسلطان العادل الأيوبي..

عن هذا العصر المشتعل بالأحداث، عن نهايات من قضوا نحبهم من سلاطين المماليك اغتيالاً، أو إعدامًا،

أو في قتال للدفاع عن عروشهم..

عن ذلك الخيط الطويل من دم المماليك.. نتحدث...



باحث حر في مجال التاريخ، يمارس الكتابة التاريخية من سنة ٢٠٠٩ ويكتب في عدد من المواقع الصحفية العربية [illegible] كبير من المقالات في تخصصه..

صدرت له كُتُب: تاريخ شكل تاني (٢٠١٠) — تاريخ في الظل (٢٠١٢) — مصر المجهولة (٢٠١٥)

